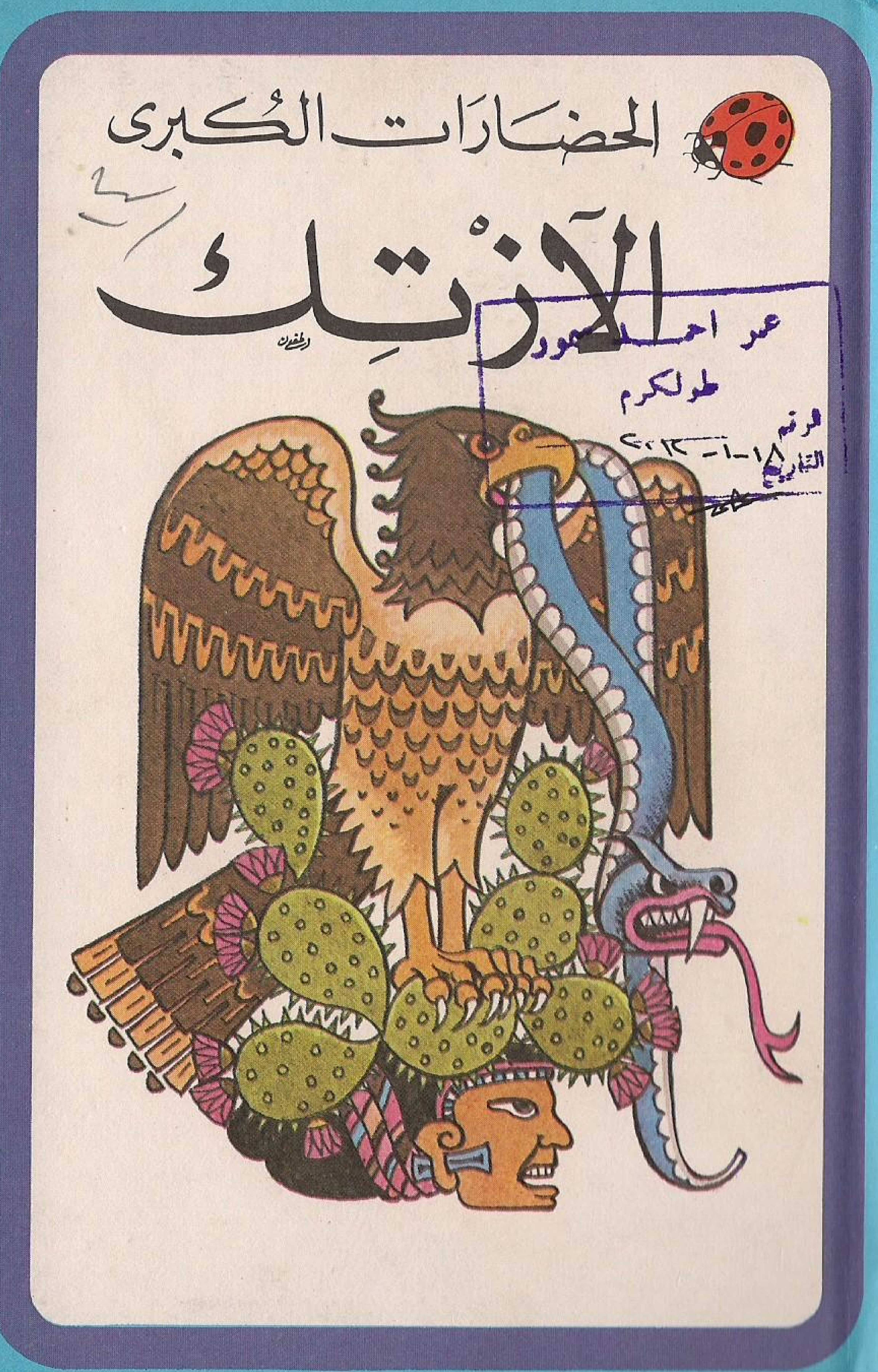

الحضارات الكُبرى
الآزتِك






# المكسيك في العام ١٥١٩

تُري هذهِ الخريطةُ بلادَ المكسيك زمنَ الغزوِ الإسباني ، والطريقَ التي اتّبعها كورتيز في حملتهِ.

أمّا الرّسم الجانبيُّ فيُري العاصمةَ - الجزيرةَ تنوتشتتلان بشبكةِ قنواتها وشوارعِها.

اَلآزْتِك مِنَ ٱلشُّعوبِ ٱلقَديمَةِ ٱلَّتي كانَ لَها شَأْنٌ عَظيمٌ في تاريخِ قارَّةِ أَميركا . ورُغْمَ ما دَلَّتْ عَلَيْهِ تَصَرُّفاتُهُمْ ، أَحْيانًا ، مِنْ بَدائِيَّةٍ ، فإِنَّهُم ٱسْتَطاعوا أَنْ يَبْنوا حَضارَةً ذاتَ بَهاءٍ ، وأَنْ يُؤَثِّروا تَأْثيرًا كَبيرًا في ٱلشُّعوبِ ٱلَّتي عاشَتْ حَوْلَهُمْ .

ويُمْكِنُ وَصْفُ حَضارَةِ ٱلآزْتِك بأَنَّها حَضارَةُ مُفارَقاتٍ ، مِنْ حَيْثُ إِنَّها كانَتْ ، مِنْ ناحِيَةٍ ، مُتَخَلِّفَةً في شُؤونِ ٱلمُعْتَقَدِ وما تَرَكَ ذٰلِكَ ٱلمُعْتَقَدُ في تَصَرُّفاتِهِمْ مِنْ قَسْوَةٍ وبَدائِيَّةٍ ، وإِنَّها كانَتْ ، مِنْ ناحِيَةٍ أُخْرى ، مُتَطَوِّرَةً في شُؤونِ ٱلبِناءِ وٱلتَّرْبِيَةِ ونِظامِ ٱلحُكْمِ .

ويَلْفِتُ ٱلنَّظَرَ أَوْجُهُ ٱلشَّبَهِ بَيْنَ تِلْكَ ٱلحَضارَةِ وحَضاراتِ ٱلعالَمِ ٱلقَديمِ ، رُغْمَ بُعْدِ ٱلشُّقَّةِ وٱنْقِطاعِ ٱلصِّلَةِ ٱلواضِحَةِ . فالآزْتِك بَنوا أَهْراماتٍ مُدَرَّجَةً ، وشَيَّدوا ٱلقُصورَ ، وحَفَروا أَقْنِيَةَ ٱلرَّيِّ . كَذٰلِكَ آمَنوا بِالحَياةِ بَعْدَ ٱلمَوْتِ وقَدَّموا القَرابينَ ، وخافوا ٱلظَّواهِرَ ٱلطَّبيعيَّةَ وعَظَّموها ، ورَصَدوا حَرَكَةَ ٱلشَّمْسِ وٱلكَواكِبِ ورَسَموا لَها ٱلخَرائِطَ ٱلفَلَكِيَّةَ .

وتَتَمَيَّزُ حَضارَةُ ٱلآزْتِك ، في جُمْلَةِ ما تَتَمَيَّزُ بِهِ ، بأَساليبِ ٱلتَّرْبِيَةِ ونِظامِ ٱلمَحاكِمِ ، وهُما مَظْهَرانِ وَجَّهَهُما عِنْدَهُمْ إِحْساسٌ عَميقٌ وصارِمٌ بِالعَدالَةِ وٱلْتِزامٌ راسِخٌ بِالمَبادِئِ .

ولا تَزالُ تِلْكَ ٱلحَضارَةُ مَوْضوعًا جَديدًا بِالنِّسْبَةِ إِلى ٱلفَتى ٱلعَرَبِيِّ ، فيهِ ٱلكَثيرُ مِنَ ٱلمَعْلوماتِ ٱلغَريبَةِ ٱلمُشَوِّقَةِ ٱلَّتي تَزيدُ مِنْ مَعْرِفَتِهِ بِالأُمَمِ ٱلقَديمَةِ وأَساليبِ حَياتِها ، وتَجْعَلُهُ يَتَفَهَّمُ حَتّى خُرافاتِها وتَصَرُّفاتِ شُعوبِها ٱلبَدائِيَّةِ .


طُبعَ في انكلترا
١٩٨٠



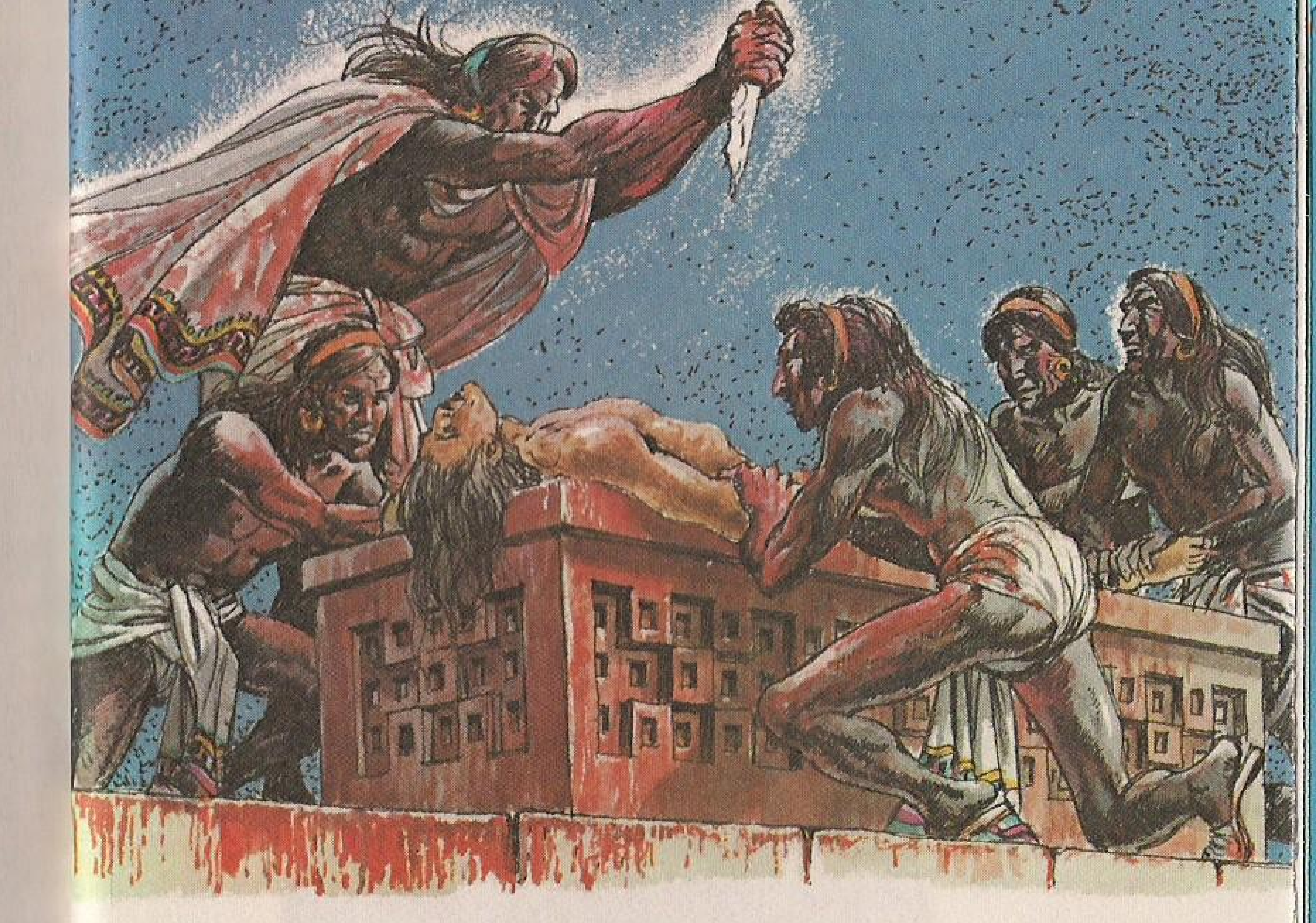
الحضارات الكُبرى

# الآزْتِك

تأليف : بِرِنْدا رالف لِويس
رسُوم : روبِرْت آيتون
ترجمَة : الدكتور ألبير مُطْلَق



مَكتبة لبنان



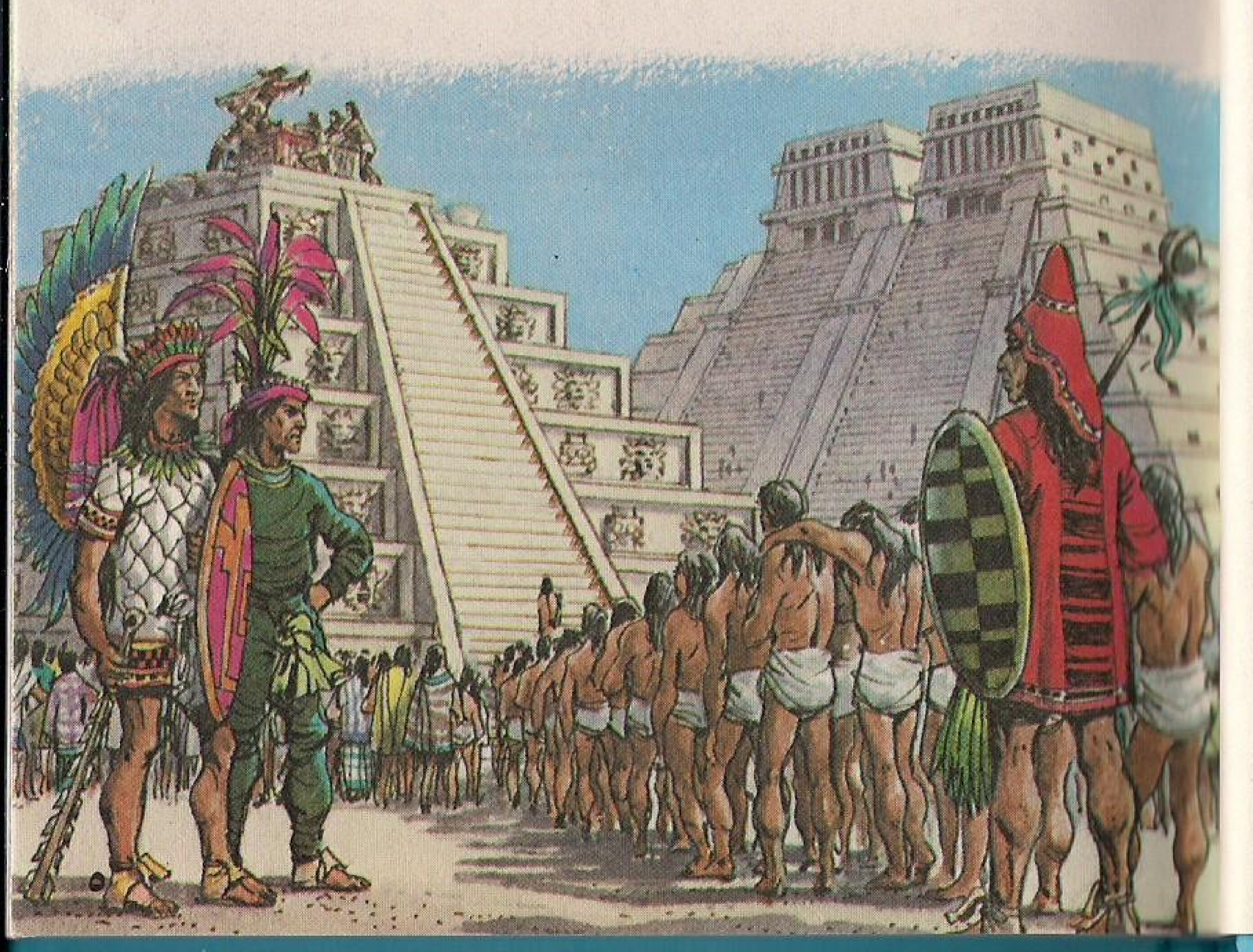
ما إنْ رَفَعَ كاهِنٌ مِنَ ٱلآزْتِك سِكّينَهُ ٱلقُرْبانِيَّ حَتّى لَمَعَ ٱلنَّصْلُ ٱلصَّوّانيُّ في بَريقِ ٱلشَّمْسِ. وبَدا تَحْتَ ٱلنَّصْلِ ٱلمَرْفوعِ رَجُلٌ مُمَدَّدٌ على ظَهْرِهِ فَوقَ مَذْبَحٍ حَجَرِيٍّ، وقَدْ أَمْسَكَ بِذِراعَيْهِ ورِجْلَيْهِ أَرْبَعَةُ كَهَنَةٍ آخَرونَ. ٱلمَوْتُ صارَ وَشيكًا. أَهْوى ٱلكاهِنُ بِسِكّينِهِ فٱخْتَرَقَ ٱلنَّصْلُ صَدْرَ ٱلضَّحِيَّةِ. وما هِيَ إلّا ثَوانٍ حَتّى كانَ ٱلقَلْبُ قَدِ ٱنْتُزِعَ، فَرَفَعَهُ ٱلكاهِنُ عالِيًا نَحْوَ ٱلشَّمْسِ مُطْلِقًا صَيْحَةَ ٱنْتِصارٍ.

كانَ ٱلكَهَنَةُ ٱلخَمْسَةُ، هُمْ وضَحِيَّتُهُمْ، وَحْدَهُمْ فَوقَ قِمَّةِ هَرَمٍ مُدَرَّجٍ يَعْلو سَبْعَةً وعِشْرينَ مِتْرًا ونِصْفَ ٱلمِترِ. غَيْرَ أَنَّ جُمْهورًا غَفيرًا عِنْدَ أَسْفَلِ ٱلهَرَمِ كانَ يَتَفَرَّجُ على مَشْهَدِ ٱلتَّضْحِيَةِ، فَيَموجُ في مَيْدانِ ٱلهَيْكَلِ في تنوتشْتِتْلان، عاصِمَةِ بِلادِ ٱلآزْتِك، وهِيَ ٱلعاصِمَةُ ٱلواقِعَةُ على ضِفافِ بُحَيْرَةِ تِشْكوكو في أَواسِطِ بِلادِ ٱلمَكْسيكِ.



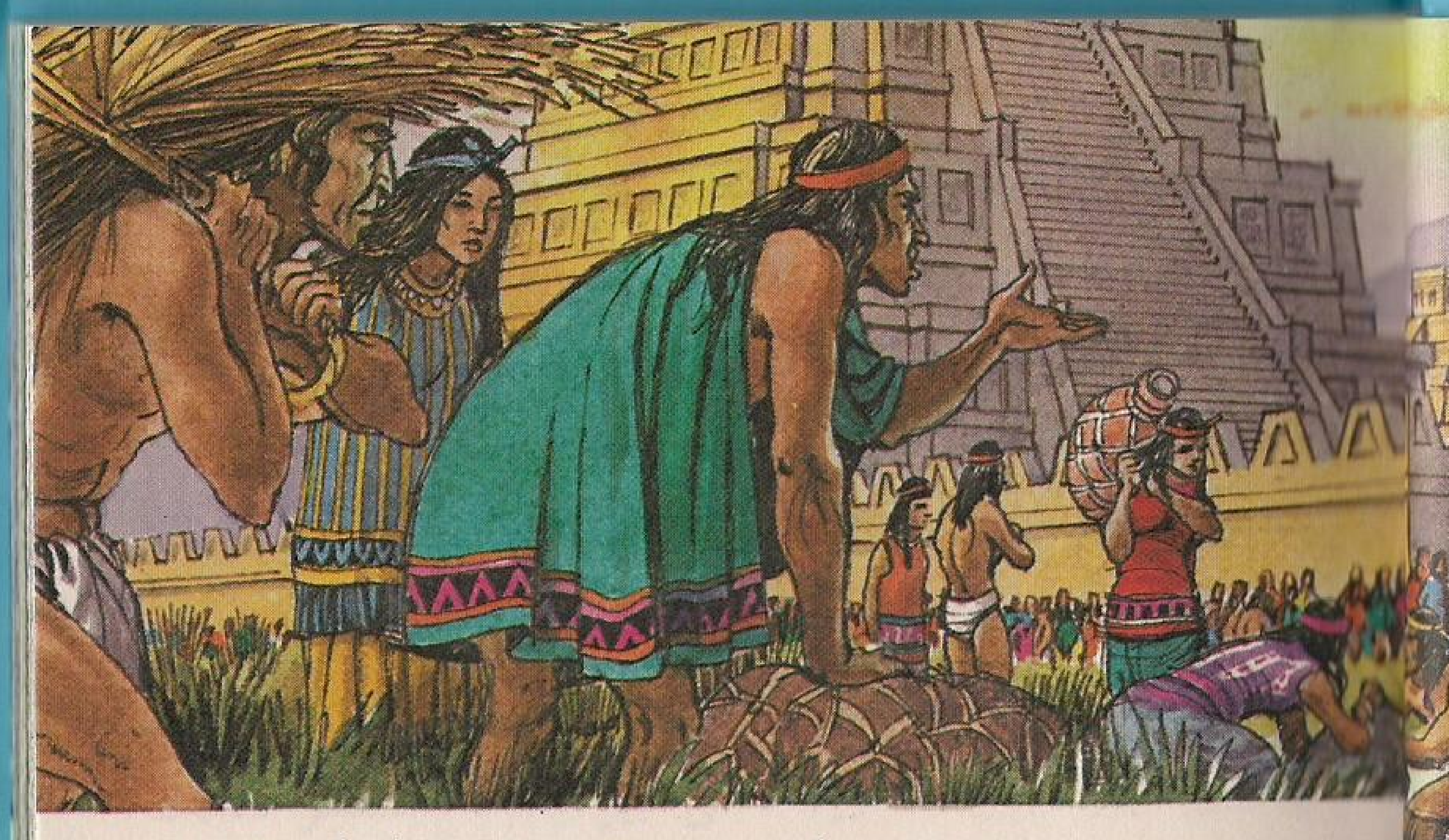
وأَطْلَقَ ٱلجُمْهورُ، حينَ تَمَّتِ ٱلتَّضْحِيَةُ، تَنَهُّدَةَ ٱرْتِياحٍ عَميقَةً. فَقَدْ حَظِيَ إِلٰهُ ٱلشَّمْسِ ٱلعَظيمُ، وٱسْمُهُ في مُعْتَقَدِهِمْ ويتْزيلوبُتْشتْلي، بِقَلْبِ ذَبيحَةٍ أُخْرى ودَمِها. بَلْ كانَ سَيُقَدَّمُ إلى هٰذا ٱلإِلٰهِ، قَبْلَ غِيابِ ٱلشَّمْسِ، مَخْزونٌ وافِرٌ مِنَ ٱلقَرابينِ ٱلبَشَرِيَّةِ ٱلثَّمينَةِ. فَقَدِ ٱصْطَفَّ عِنْدَ قاعِدَةِ ٱلهَرَمِ عَدَدٌ مِمَّنْ سَيُقَدَّمونَ قَرابينَ. وكانَ هؤُلاءِ، طَوالَ فَتْرَةِ بَعْدِ ٱلظُّهْرِ، يَتَسَلَّقونَ دَرَجاتِ ٱلهَرَمِ، ٱلواحِدُ بَعْدَ ٱلآخَرِ. وقُبَيْلَ حُلولِ ٱلظَّلامِ كانَ قَدْ ضُحِّيَ بِهِمْ جَميعًا.

وكانَ ٱلمُتَفَرِّجونَ قَدْ بَدَأوا بِٱلتَّفَرُّقِ، لأَنَّ ٱللَّيْلَ وَشيكُ ٱلهُبوطِ. وٱلآزْتِك يَرْهَبونَ ٱللَّيْلَ، رُغْمَ أَنَّ ٱلمَجامِرَ ٱلمُتَّقِدَةَ تُضيءُ شَوارِعَ عاصِمَتِهِمْ تنوتشْتِتْلان إِضاءَةً جَيِّدَةً.



كانَ ٱلآزْتِك يُؤْمِنونَ بٱنْتِشارِ ٱلأَشْباحِ وٱلعفاريتِ في كُلِّ مَكانٍ . يُضافُ إلى ذٰلِكَ أَنَّ عاصِمَتَهُمْ ، تِنوتْشْتِلان ، تَعْلو ٢٢٥٥ مِتْرًا فَوْقَ سَطْحِ ٱلبَحْرِ ، وأَنَّ الطَّقْسَ ، لذٰلِكَ ، يَغْدو شَديدَ ٱلبُرودَةِ بُعَيْدَ ٱلغِيابِ . أَمّا لِباسُهُمْ فكانَ خَفيفًا ، يَكْتَفي ٱلرِّجالُ مِنْهُمْ ، عادةً ، بِسُتْرَةٍ حَوْلَ وَسَطِهِمْ ، ويَسيرونَ حُفاةً . أَمّا مَنْ كانوا يَرْتَدونَ عَباءَةً فكُنْتَ تَراهُمْ يَتَحَرَّكونَ داخِلَها وهُمْ مُنْطَلِقونَ عَبْرَ ٱلمَمَرّاتِ ٱلموحِلَةِ ٱلَّتي تَقودُهُمْ إلى أَفْنِيَةِ ٱلمِياهِ ، حَيْثُ يَكونونَ قَدْ رَبَطوا زَوارِقَهُمْ . وتَرى ٱلآزْتِك هُناكَ يَقْفِزونَ إلى تِلْكَ ٱلزَّوارِقِ ويَنْطَلِقونَ إلى بُيوتِهِمْ .



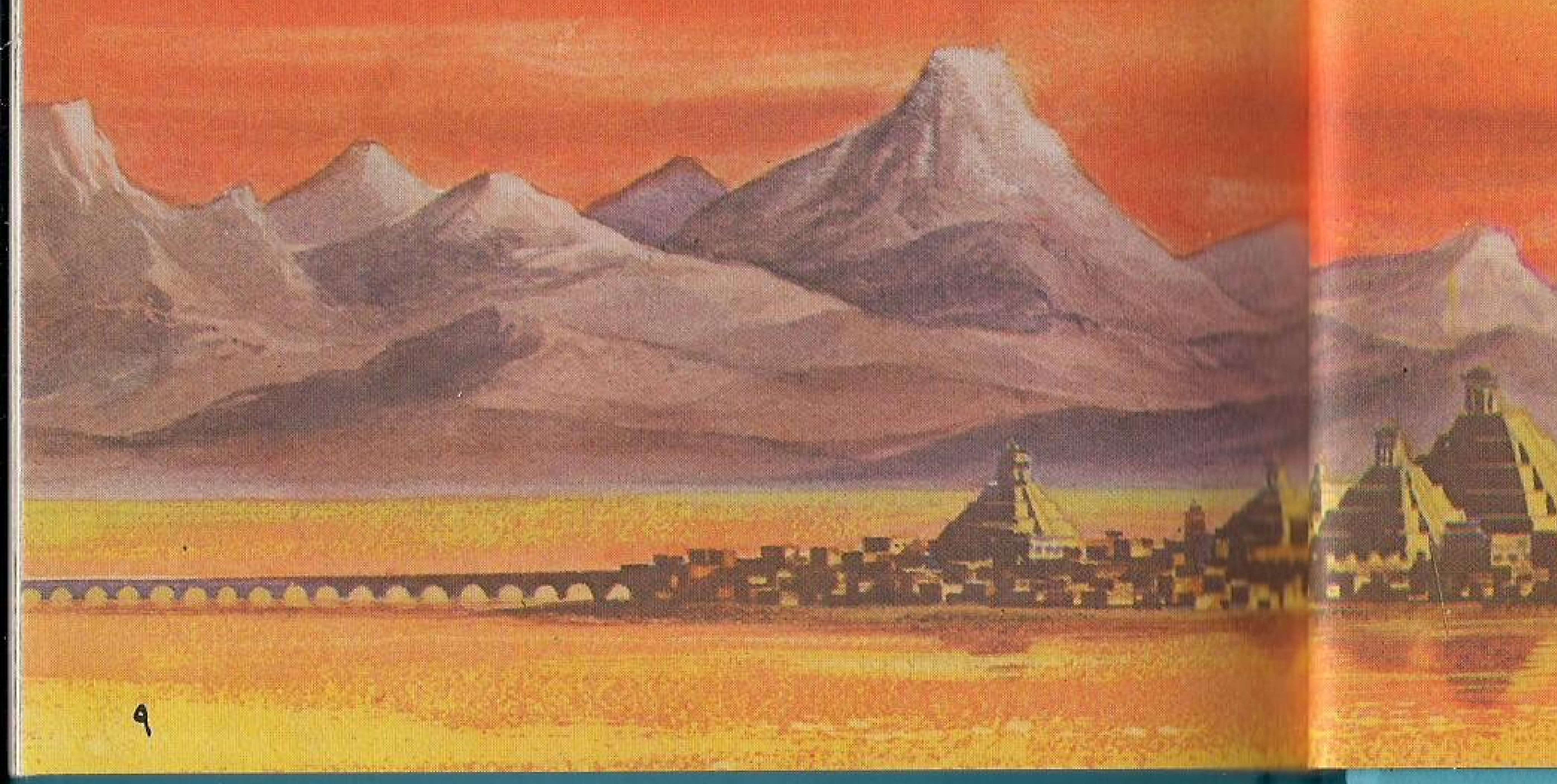


كانوا جَميعًا راضينَ . فَقَدْ أَبْعَدَ ما شاهَدوهُ في ٱلهَيْكَلِ أَسْوَأَ ما يُساوِرُهُمْ مِنْ مَخاوِفَ . فإلٰهُ ٱلشَّمْسِ ، في ٱعْتِقادِهِمْ ، كانَ يَموتُ كُلَّ يَوْمٍ عِنْدَ ٱلغِيابِ . وطالَما زُوِّدَ بالقَرابينِ ٱلبَشَرِيَّةِ فَسَوْفَ يُبْعَثُ حَيًّا في فَجْرِ ٱليَوْمِ ٱلتالي . ولَقَدْ كانَتْ قَرابينُ بَعْدِ ظُهْرِ ذٰلِكَ ٱليَوْمِ وافِرَةً ، فلا شَكَّ أَنَّ ٱلشَّمْسَ سَتُشْرِقُ ، إذًا ، فَوْقَ ٱلقُصورِ ٱلحَجَرِيَّةِ ٱلبَيْضاءِ في تِنوتْشْتِلان وفَوْقَ ٱلهَياكِلِ ، وأَنَّ ٱلمَحْصولاتِ ٱلزِّراعِيَّةَ وأَشْجارَ الفاكِهَةِ والخُضَرَ ستَظَلُّ على عَطائِها ، وأَنَّ ٱلحَياةَ سَتَسْتَمِرُّ كما كانَتْ . وإنَّهُ ، تَأْمينًا لٱنْبِعاثِ إلٰهِ ٱلشَّمْسِ عِنْدَ كُلِّ شُروقٍ ، ولٱسْتِمْرارِ عالَمِ ٱلآزْتِك على نَحْوِ ما هُوَ قائِمٌ ، كانوا سَيُضَحّونَ في ٱليَوْمِ ٱلتّالي بِعَدَدٍ آخَرَ مِنَ ٱلقَرابينِ ٱلبَشَرِيَّةِ .

فما حَقيقَةُ ذٰلِكَ ٱلعالَمِ ٱلَّذي كانَ ٱلآزْتِك يُكافِحونَ لِلْمَدِّ في أَجَلِهِ بذٰلِكَ ٱلأُسْلوبِ ٱلوَحْشِيِّ ، أُسْلوبِ تَقْديمِ ٱلقَرابينِ ٱلبَشَرِيَّةِ إلى إلٰهِهِم ؟ إنَّ أَكْثَرَ ما يُثيرُ ٱلدَّهْشَةَ حَوْلَ ذٰلِكَ ٱلعالَمِ هُوَ أَنَّهُ عالَمُ ٱلمُفارَقاتِ . فَقَدْ كانَ ٱلآزْتِك ، في نَواحٍ ، يَسْبِقونَ عَصْرَهُمْ سَبْقًا مُدْهِشًا ، وكانوا ، في نَواحٍ أُخْرى ، مُتَخَلِّفينَ تَخَلُّفًا فَظيعًا .

عِنْدَما دَخَلَ ٱلفاتِحُ ٱلإسْبانِيُّ هِرْنان كورْتيز قَلْبَ بِلادِ ٱلمَكْسيك أَوَّلَ مَرَّةٍ في ٱلعامِ ١٥١٩ ، صُعِقَ هُوَ وجُنودُهُ لِما شاهَدوهُ مِنْ رَوائِعِ تنوتْشْتِتْلان واتِّساعِها . فَقَدْ كانَتْ بِالثَّلاثِمئةِ وخَمْسينَ أَلْفًا مِنْ سُكّانِها وبِالسِّتّينَ أَلْفًا مِنْ بُيوتِها أَكْبَرَ بِكَثيرٍ مِنْ أَيَّةِ مَدينَةٍ أوروبيَّةٍ تُعاصِرُها . وكانَ يَرْبُطُ ٱلعاصِمَةَ بِشَواطِئِ بُحَيْرَةِ تِشْكوكو ثَلاثَةُ طُرُقٍ رَئيسيَّةٍ ، يَتَراوَحُ طولُ ٱلواحِدِ مِنْها بَيْنَ ثَلاثَةِ كيلومِتْراتٍ وخَمْسَةٍ ، ويَتَّسِعُ ٱلعَرْضُ لِعَشَرَةِ خَيّالَةٍ مُتَجاوِرينَ . وأَمّا ٱلماءُ ٱلعَذْبُ فَكانَ يُجَرُّ إلى قَلْبِ ٱلمَدينَةِ عَبْرَ خَطٍّ أَنابيبَ مُزْدَوِجٍ ، في حينِ يَحْمي ٱلمَدينَةَ مِنْ مِياهِ ٱلفَيَضانِ خَنْدَقٌ طولُهُ سِتَّةَ عَشَرَ كيلومِتْرًا .

وكانَ مَلِكُ ٱلأزْتِك مُكْتيزوما شوكويُتْسين يَعيشُ في قَصْرٍ ضَخْمٍ ، يَضُمُّ مِئَةَ غُرْفَةٍ ومِئَةَ حَمّامِ بُخارٍ ، وعِشْرينَ مَدْخَلًا ، وقاعَةً رَئيسيَّةً واحِدَةً تَتَّسِعُ لِثَلاثَةِ آلافِ مَدْعُوٍّ .

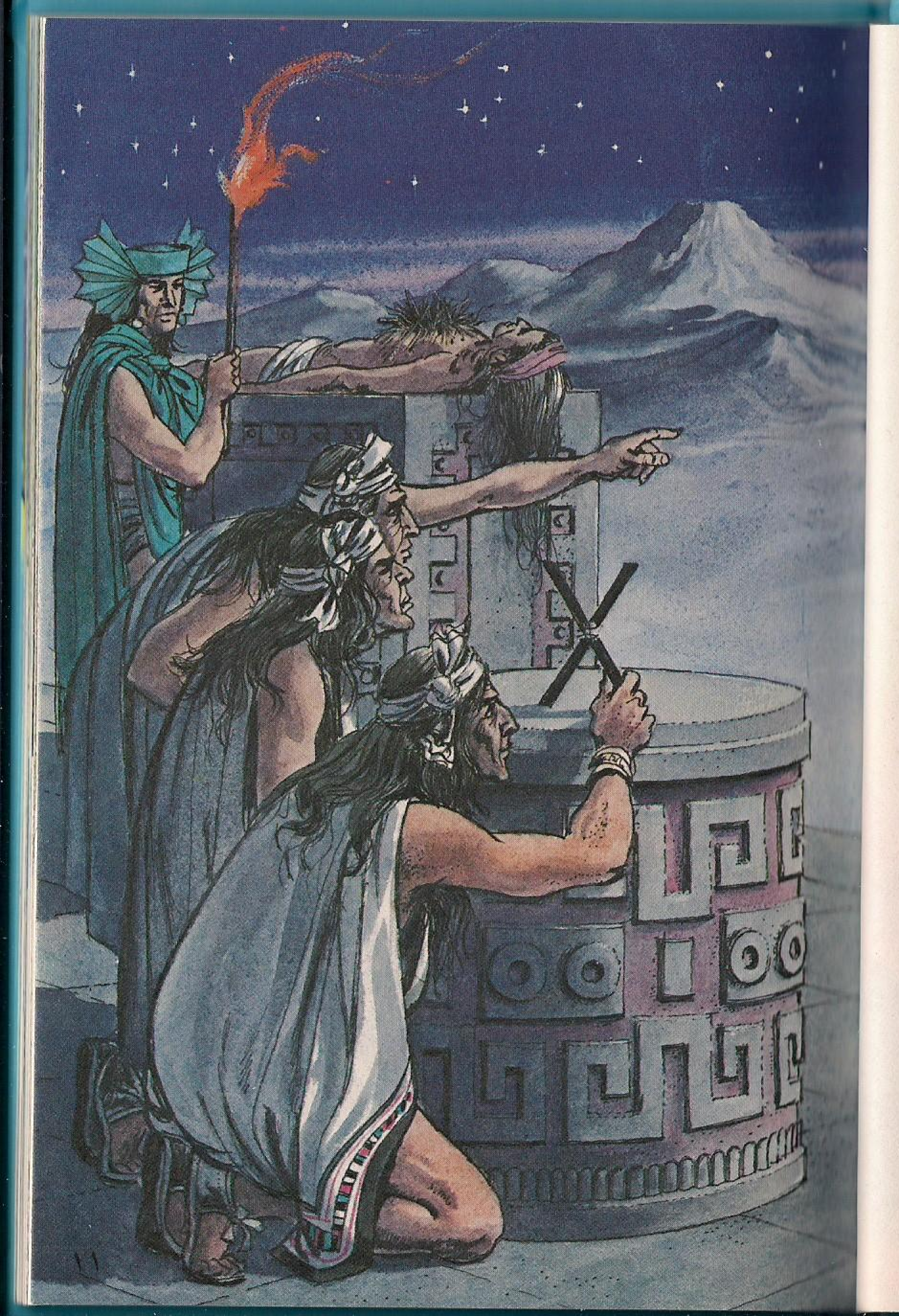


العاصِمَةُ تنوتْشْتِتْلان
كَما تَخَيَّلَها الرَّسّامُ



وراحَ أَحَدُ ٱلإسْبانِ يَتَجَوَّلُ في ٱلقَصْرِ مُسْتَكْشِفًا إيّاهُ ، لٰكِنْ أَصابَهُ ٱلإرْهاقُ قَبْلَ أَنْ يَتَمَكَّنَ مِنْ مُشاهَدَتِهِ كُلِّهِ . إلّا أَنَّ ما رَآهُ مِنْهُ كانَ مُدْهِشًا . فَقَدْ غَطّى ٱلرُّخامُ وٱليَشْبُ ومَوادُّ أُخْرى نادِرَةٌ جُدْرانَ ٱلغُرَفِ . أَمّا ٱلسُّقوفُ فَكانَتْ مَبْنِيَّةً مِنْ خَشَبِ ٱلصَّنَوْبَرِ وٱلأَرْزِ ٱلمَحْفورِ حَفْرًا دَقيقًا . وأَحاطَتْ بِٱلقَصْرِ بَساتينُ مَرْوِيَّةٌ مَليئَةٌ بِٱلأَشْجارِ وٱلأَزْهارِ الاسْتِوائِيَّةِ ، وأَقْفاصُ طُيورٍ كَبيرَةٌ وحَدائِقُ تَحْتَوي عَلى غَرائِبِ ٱلطَّيْرِ وٱلحَيَوانِ .

عَلى أَنَّ ٱلشَّعْبَ ٱلَّذي بَنى مِثْلَ تِلْكَ ٱلمَدينَةِ ٱلعَظيمَةِ كانَ لا يَزالُ ، في عَدَدٍ مِنْ وُجوهِ حَياتِهِ ، بَدائِيًّا . فَٱلأزْتِك ، عَلى سَبيلِ ٱلمِثالِ ، لَمْ يَسْتَعْمِلوا ٱلدّولابَ في مُواصَلاتِهِمْ ولا ٱلحَيَوانَ في شَدِّ مِحْراثِهِمْ . وحَيَوانُ ٱلنَّقْلِ ٱلوَحيدُ عِنْدَهُمْ كانَ الإنْسانَ نَفْسَهُ . فَقَدْ كانَ ٱلحَمّالونَ يَرْتَحِلونَ صُفوفًا طَويلَةً عَبْرَ ٱلمَمَرّاتِ ٱلجَبَلِيَّةِ في طَريقِهِمْ إلى تنوتْشْتِتْلان ، يَحْمِلونَ عَلى ظُهورِهِمْ شَحَنَ ٱلقُطْنِ وٱليَشْبِ وٱلرّيشِ وٱلذَّهَبِ وٱلجَواهِرِ وٱلجُلودِ ومُنْتَجاتِ ٱلزِّراعَةِ وبَضائِعَ أُخْرى ، يَنْقُلونَها إلى ٱلعاصِمَةِ مِنْ أَقاصي إمْبَراطورِيَّةِ ٱلأزْتِك ٱلمُتَرامِيَةِ ٱلأَطْرافِ .




وكانَتِ ٱلْمُقايَضَةُ أَساسَ تَبادُلِ ٱلسِّلَعِ في تِنوشْتِتْلان . وٱلْمُقايَضَةُ ، عادَةً ، وَسيلَةُ ٱلشُّعوبِ ٱلْبِدائيَّةِ في ٱلتِّجارَةِ .

ولَمْ تَكُنْ مُفارَقاتُ عالَمِ ٱلآزْتِك ٱلغَريبَةُ مُقْتَصِرَةً على ما ذُكِرَ . فَمَعْرِفَةُ ٱلآزْتِك في عِلْمِ ٱلْفَلَكِ ، عَلى سَبيلِ ٱلْمِثالِ ، كانَتْ تَفوقُ مَعْرِفَةَ ٱلأوروبيّين بِمَراحِلَ . كانَ فَلَكِيّوهُمْ ، وجَميعُهُمْ مِنَ ٱلْكَهَنَةِ ، يَرْصُدونَ حَرَكَةَ ٱلشَّمْسِ وٱلْقَمَرِ وٱلْكَواكِبِ ويَرْسُمونَ خَرائِطَ فَلَكِيَّةً لَها ، ويُدَوِّنونَ مُلاحَظاتِهِمْ بِوَساطَةِ رُموزٍ هَنْدَسيَّةٍ وغَيْرِها مِنَ ٱلرُّموزِ ٱلرِّياضيَّةِ . ولَمْ تَصِلْ مَعْرِفَةُ ٱلأوروبيّين ٱلْفَلَكيَّةُ إلى هٰذا ٱلْمُسْتَوى إلّا في أَوائِلِ ٱلْقَرْنِ ٱلسّابِعَ عَشَرَ ، بَعْدَ أَنْ نُقِلَتْ مَعارِفُ ٱلْعَرَبِ ٱلْفَلَكيَّةُ إلى ٱللُّغاتِ ٱلأوروبيَّةِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ .

إلّا أَنَّ ٱلآزْتِك ٱلَّذينَ تَفَوَّقوا عَلى ٱلأوروبيّينَ في هٰذا ٱلعِلْمِ ٱلْمُعَقَّدِ ، كانوا يَعيشونَ ، إلى حَدٍّ ما ، في ٱلعَصْرِ ٱلْحَجَرِيِّ ، ٱلعَصْرِ ٱلَّذي عاشَ فيهِ ٱلأوروبيّونَ في ٱلعامِ ٢٠٠٠ ق.م.

فقَدِ ٱسْتُعْمِلَ في أوروبّة ٱلعَصْرِ ٱلحَجَرِيِّ ٱلصَّوّانُ وٱلحِجارَةُ وٱلخَشَبُ ومَوادُّ أُخْرى غَيْرُ مَعْدِنيَّةٍ في صِناعَةِ ٱلأَوْعِيَةِ ٱلْمَنْزِليَّةِ وٱلأَدَواتِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ . وكانَ ٱلآزْتِك لا يَزالونَ ، بَعْدَ ذٰلِكَ بأَكْثَرَ مِنْ ثَلاثَةِ آلافِ سَنَةٍ ، يَسْتَعْمِلونَ ٱلْمَوادَّ نَفْسَها في صِناعَتِهِمْ ، في حينِ كانَ ٱلأوروبيّونَ قَدْ شَرَعوا في ٱسْتِخْدامِ ٱلمَعادِنِ مُنْذُ عَهْدٍ بَعيدٍ . عَرَفَ ٱلآزْتِك ٱلمَعادِنَ ولٰكِنَّهُمْ كانوا يَسْتَخْدِمونَها في وَسائِلِ ٱلتَّزْيينِ ، فَيَصوغونَ مِنَ ٱلذَّهَبِ وٱلفِضَّةِ وٱلنُّحاسِ وٱلبرونْزِ حُلِيًّا ، أَوْ يُزَيِّنونَ بِها ٱلأَبْنِيَةَ ، أَوْ يَصْنَعونَ مِنْها لآلِهَتِهِمْ تَماثيلَ وأَصْنامًا .

إِشْعالُ ٱلنّارِ في صَدْرِ ذَبيحَةٍ بَشَرِيَّةٍ ،
ورَصْدُ كَواكِبَ وأَفْلاكٍ



كاهِنٌ يتنبأُ بجنسِ الطِّفلِ المُنتظَرِ

ولعلَّ أشدَّ المُفارقاتِ غرابةً تتمثَّلُ في الطَّريقةِ الَّتي نظرَ فيها الآزْتِك إلى أنفُسِهِمْ وإلى قدَرِهِمْ.

فمِنْ ناحيةٍ، كانَ الخوْفُ مِنْ ضعْفِهِمِ الإنسانيِّ يستحوذُ على تفكيرِهِمْ. فقدْ أحسّوا بعجزِهِمْ أمامَ قوى الطَّبيعةِ المُروِّعةِ وأمامَ الآلِهةِ الَّتي عبدوها. وغضبُ ويتزيلوبُتشتلي وغيرِهِ مِنَ الآلِهةِ كان يعني عِندَهُمْ نهايةَ العالَمِ. ودأبوا، إرضاءً لهذِهِ الآلِهةِ، على تقديمِ القرابينِ البشريَّةِ. وكانَ أنْ آمنوا بالخرافاتِ، ورفَضوا أنْ يبْنوا بيْتًا أوْ يشتركوا في قِتالٍ أوْ يتزوَّجوا أوْ يفعلوا أيَّ شيْءٍ مُهِمٍّ آخَرَ، قبلَ أنْ يستشيرَ الكاهِنُ النُّجومَ ويُعلِنَ الوقْتَ المُناسِبَ.



ومِنْ ناحيةٍ أُخرى، كانَ الآزْتِك يُؤْمِنونَ أنَّ موْقِعَهُمْ بيْنَ الشُّعوبِ فريدٌ، وأنَّ ويتزيلوبُتشتلي قدِ اختارَهُمْ أسيادًا للعالَمِ، وأنَّ الشُّعوبَ الأُخرى لَمْ توجَدْ إلّا لتكونَ خدَمًا لهُمْ، ولتُزوِّدَهُمْ بالطَّعامِ والبضائعِ وبضحايا لطُقوسِهِمِ الدِّينيَّةِ.



إلهُ الحرْبِ

ولَمْ يَكُنْ يَصْعُبُ على ٱلآزْتِك ، في مَطْلَعِ ٱلقَرْنِ ٱلسّادِسَ عَشَرَ ، أَنْ يُصَدِّقُوا أَنَّ إِلٰهَهُمْ ويتْزيلوبُتْشْتْلي قَدْ بَرَّ بوَعْدِهِ لَهُمْ ؛ فَقَدْ كانوا آنَذاكَ يَحْكُمونَ إِمْبَراطورِيَّةً تَعْدادُ سُكّانِها اثْنا عَشَرَ مَلْيونًا ومِساحَتُها مِئَتانِ وخَمْسونَ أَلْفَ كيلومِتْرٍ مُرَبَّعٍ .

العلامَةُ ٱلَّتي أَرْسَلَها ويتْزيلوبُتْشْتْلي

كانوا ، قَبْلَ ذٰلِكَ ٱلزَّمانِ بقَرْنَيْنِ فَقَطْ ، لا يَزالونَ بَدْوًا رُحَّلًا يَتَنَقَّلونَ مِنْ



مَكانٍ إلى آخَرَ بَحْثًا عَنْ مَأْوًى ، لَيْسَ لَهُمْ مِنْ كِساءٍ غَيْرُ جِلْدِ ٱلحَيَوانِ ، ولا مَلْجَأَ ، في ٱلعادَةِ ، غَيْرُ كُهوفِ ٱلجِبالِ . يَعيشونَ على ٱلصَّيْدِ ، أَوْ يَعْمَلونَ جُنودًا مُرْتَزِقَةً في إِمْرَةِ ٱلقَبائِلِ ٱلأَفْضَلِ حالًا مِنْهُمْ . يَنْجَحونَ ، أَحْيانًا ، في أَنْ يَمْكُثوا بِضْعَ سَنَواتٍ في مَكانٍ واحِدٍ ، أَتْباعًا لقَبائِلَ أُخْرى ، ولٰكِنَّهُمْ يُكْرَهونَ ، في آخِرِ ٱلأَمْرِ ، على ٱلرَّحيلِ .

وإذا كانَ ٱلآزْتِك قَدْ عومِلوا ، آنَذاكَ ، مُعامَلَةَ ٱلمَنْبوذينَ ، فَوراءَ ذٰلِكَ سَبَبٌ وَجيهٌ . فهُمْ شَعْبٌ شَديدُ ٱلقَسْوَةِ كانَ قَدْ بَدَأَ ، مُنْذُ ذٰلِكَ ٱلوَقْتِ ، في مُمارَسَةِ عادَةِ ٱلتَّضْحِيَةِ بِٱلبَشَرِ .

وقَدْ حَدَثَ مَرَّةً أَنْ أُرسِلَ ٱلمُرْتَزِقَةُ مِنَ ٱلآزْتِك إلى مَعْرَكَةٍ فَعادوا إلى سَيِّدِهِمْ بكيسٍ فيهِ آذانُ ثمانِيَةِ آلافِ أَسيرٍ . وتِلْكَ وَسيلَةٌ مُرَوِّعَةٌ مُخيفَةٌ لتِبْيانِ عَدَدِ ٱلَّذينَ وَقَعوا في ٱلأَسْرِ مِنَ ٱلأَعْداءِ . فلا عَجَبَ ، إذًا ، أَنْ نَفَرَتِ ٱلشُّعوبُ ٱلأُخْرى مِنْهُمْ .

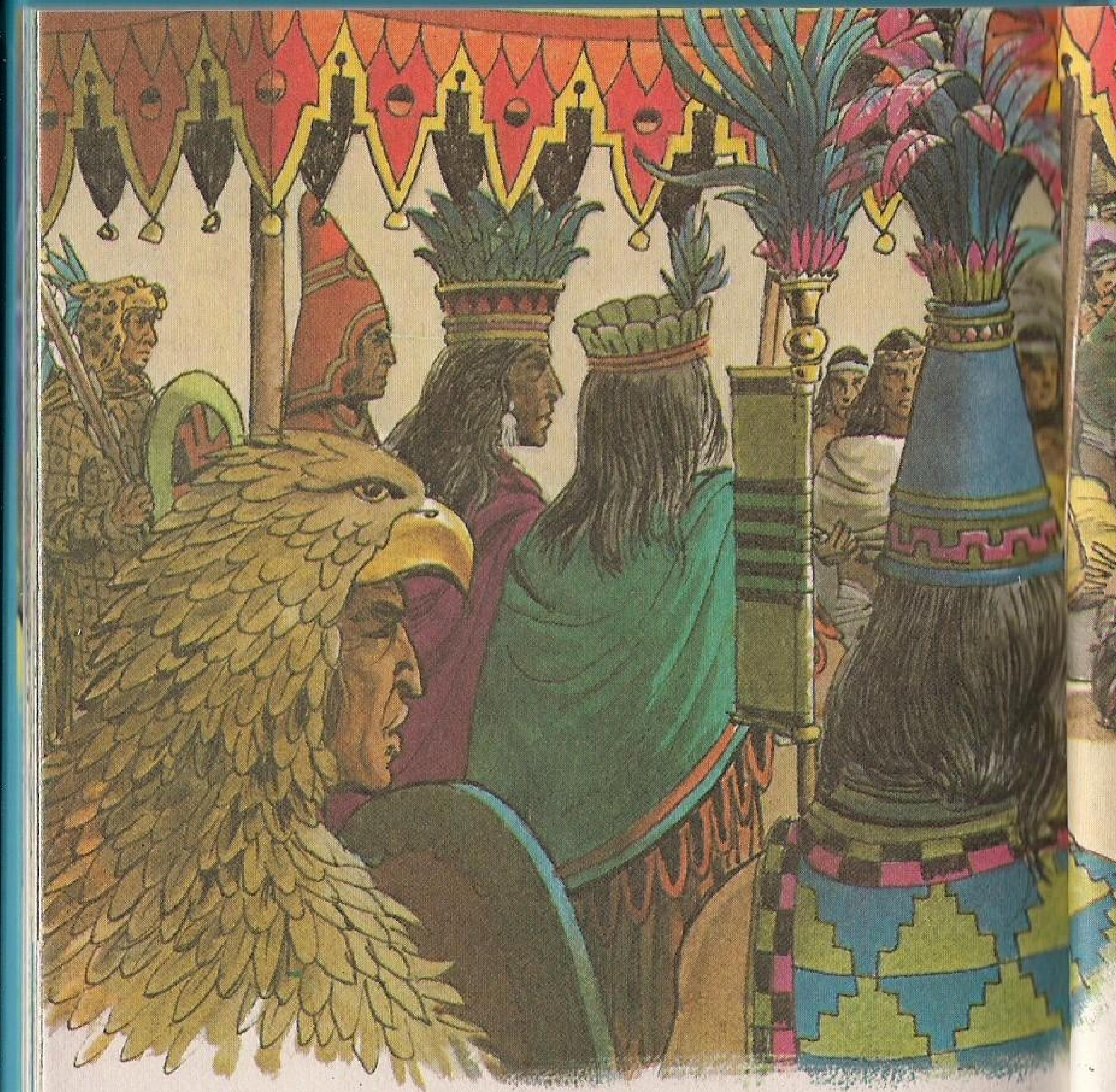
وَصَلَ ٱلآزْتِك في آخِرِ ٱلأَمْرِ إلى شاطِئِ بُحَيْرَةِ تِشْكوكو ، وهْوَ مَكانٌ ، على عِلّاتِهِ ، رَأَوا أَنْ يَسْتَقِرّوا فيهِ . ما كانَ حَوْلَهُمْ غَيْرُ ٱلمُسْتَنْقَعاتِ وجُزُرٍ غَيْرِ مَأْهولَةٍ تَعِجُّ بِٱلبَعوضِ . على أَيِّ حالٍ ، فإِنَّ إِلٰهَهُمْ ويتْزيلوبُتْشْتْلي نَفْسَهُ ، وَفْقَ ما أُثِرَ عَنْهُمْ ، هُوَ ٱلَّذي قَضى بأَنْ يكونَ ذٰلِكَ ٱلمَوْقِعُ ٱلمُنَفِّرُ دارًا لَهُمْ . في أَحَدِ ٱلأَيّامِ رَأى كاهِنٌ مِنَ ٱلآزْتِك نَسْرًا يَحُطُّ على شَجَرَةِ صَبّارٍ . وادَّعى ذٰلِكَ ٱلكاهِنُ أَنَّ ما رَآهُ عَلامَةٌ مِنْ ويتْزيلوبُتْشْتْلي . فبَنى ٱلآزْتِك في ذٰلِكَ ٱلمَوْقِعِ هَيْكَلًا ، وأَقاموا حَوْلَهُ لأَنْفُسِهِمْ أَكْواخًا مِنْ قَصَبٍ . وهُناكَ أَخَذوا يَعيشونَ حَياةً تاعِسَةً قِوامُها سَمَكُ ٱلمُسْتَنْقَعاتِ وطُيورُ ٱلماءِ وشَيْءٌ مِنَ ٱلتِّجارَةِ مَعَ ٱلقَبائِلِ ٱلمُجاوِرَةِ .

اَلْآزْتِك يُحَصِّلُونَ اَلْجِزْيَةَ
مِنَ اَلشُّعُوبِ اَلتَّابِعَةِ لَهُمْ

وكانَتِ ٱلحياةُ في مِثْلِ هٰذِهِ ٱلظُّروفِ ٱلقاسِيَةِ صِراعًا شاقًّا . إلّا أنَّ مَجْموعَةَ ٱلأَكْواخِ ٱلقائِمَةِ على بُحَيْرَةِ تِشْكوكو أخَذَتْ تَتَحَوَّلُ ، بَعْدَ سَنَواتٍ قَليلَةٍ ، إلى ٱلمَدينَةِ ٱلَّتي عُرِفَتْ بِٱسْمِ تِنوتْشْتِتْلان ، أيْ «مَوْقِعِ ٱلصَّبّارِ» في لُغَةِ ٱلآزْتِك . وسُرْعانَ ما أخَذَ ٱلآزْتِك يَغْزونَ ٱلقَبائِلَ مِنْ حَوْلِهِمْ ؛ وكانوا في هٰذا مُجَلّينَ . وما إنْ حَلَّ ٱلعامُ ١٤٤٠ حتّى كانوا قَدِ ٱكْتَسَحوا واديَ ٱلمَكْسيكِ بِأَسْرِهِ .

وتَمَكَّنَ ٱلآزْتِك ، بَعْدَ ثَمانينَ عامًا مِنْ ذٰلِكَ ٱلتّاريخِ ، مِنْ إخْضاعِ عَدَدٍ آخَرَ مِنَ ٱلقَبائِلِ ، بِحَيْثُ بَنَوا إمْبراطورِيَّةً ٱمْتَدَّتْ مِنْ خَليجِ ٱلمَكْسيكِ إلى شَواطِئِ ٱلمُحيطِ ٱلهادي (ٱنْظُرِ ٱلخَريطَةَ في أوَّلِ ٱلكِتابِ) .





وشَمَلَتْ تِلْكَ ٱلبِلادُ ٱلواسِعَةُ ثَمانيَ وثَلاثينَ مُقاطَعَةً تَسْكُنُها شُعوبٌ وقَبائِلُ ، وهٰؤُلاءِ ٱعْتُبِروا أتْباعًا لِأَسْيادِهِمْ مِنَ ٱلآزْتِك ، لا يَتَمَيَّزونَ كَثيرًا عَمّا يُعْرَفُ بِعَبيدِ ٱلأَرْضِ .. وكانَ على ٱلأَتْباعِ أنْ يُرْسِلوا إلى أسْيادِهِمْ في تِنوتْشْتِتْلان خَيْرَ مَحْصولاتِهِمِ ٱلزِّراعِيَّةِ ، وصَفْوَةَ مُنْتَجاتِهِمِ ٱلصِّناعِيَّةِ ، ومُقْتَنَياتِهِمِ ٱلثَّمينَةَ ، وسِوى ذٰلِكَ مِنْ أشْكالِ ٱلجِزْيَةِ .

وكانتِ الشُّعوبُ والقبائلُ المغلوبةُ على أمرِها تمقُتُ الآزْتِك مقتًا شديدًا ، ولٰكِنْ تقِفُ عاجزةً أمامَ قوّةِ أسْيادِها وقُدْراتِهِمْ . فلَمْ يَكُنْ لَها ، إذًا ، إلّا أنْ تدْفعَ الجِزْيَةَ ، وأنْ تُصلّي حتّى يكونَ لَها ، يومًا منَ الأيّامِ ، وبِصورةٍ منَ الصُّوَرِ ، انْتِقامٌ مِنْ مُسْتَعْبِديها .

ولَمْ يَكُنْ ما تَدْفَعُهُ الشُّعوبُ التّابِعَةُ مِنْ مَحْصولاتِها الزِّراعيَّةِ ومُنْتَجاتِها ومُقْتَنَياتِها الثَّمينةِ إلّا جانبًا مِنَ الجِزْيَةِ . فقَدْ كانَ عَلَيْها ، كذٰلِكَ ، أنْ تُزوِّدَ أسْيادَها بأعْدادٍ مِنَ البَشَرِ يُقَدِّمونَ قرابينَ في الهَياكِلِ ، أوْ يتَّخِذونَ عبيدًا . كانَ على الأتْباعِ ، نِساءً ورِجالًا ، أنْ يَتْرُكوا مَنازِلَهُمْ ، دونَ رَجْعَةٍ ، حينَ يَطْلُبُ أسْيادُهُمُ الآزْتِك مِنْهُمْ ذٰلِكَ ، وأنْ يَمْضوا في تِلْكَ الرِّحْلَةِ الكَئيبَةِ إلى تِنوتْشْتِلان . ولا أحَدَ يَعْلَمُ عَدَدَ أولٰئِكَ الَّذينَ كانوا يَفِدونَ مُكْرَهينَ ، ولٰكِنْ لا شَكَّ أنَّهُ كانَ عَدَدًا هائِلًا . فقَدْ كانَ كَهَنَةُ الآزْتِك يُضَحّونَ ، سَنَوِيًّا ، بما يَتَراوحُ بَيْنَ عَشَرَةِ آلافِ ضَحيَّةٍ بَشَرِيَّةٍ وخَمْسينَ ألْفًا ؛ وقَدْ يُضَحّى بمُناسَبَةٍ خاصَّةٍ واحِدَةٍ بالآلافِ . في العامِ ١٤٧٣ دَشَّنَ الآزْتِك الهَيْكَلَ المُزْدَوِجَ لإلٰهَيْنِ مِنْ آلِهَتِهِمْ هُما ويتزيلوبُتْشْتلي وكيتْزَلْكُواتْل (أيْ واهِبُ الحَضارَةِ ، في لُغَتِهِمْ) ، وقامَ الكَهَنَةُ أرْبَعَةَ أيّامٍ بلَياليها يُقَدِّمونَ الذَّبائِحَ البَشَرِيَّةَ حتّى بَلَغَ مَجْموعُ الضَّحايا عِشْرينَ ألْفًا . وَقَفَ الضَّحايا في أرْبَعَةِ صُفوفٍ امْتَدَّ الواحِدُ مِنْها عَبْرَ شَوارِعِ تِنوتْشْتِلان أكْثَرَ مِنْ ثَلاثَةِ كيلومِتْراتٍ . إنَّهُ لَمَصيرٌ مُرَوِّعٌ ، زادَ في بَشاعَتِهِ مَنْظَرُ الكَهَنَةِ أنْفُسِهِمْ . فقَدْ طَلَوا أجْسادَهُمْ كُلَّها بالسَّوادِ ولَبِسوا عَباءاتٍ زَيَّنوها بالجَماجِمِ والعِظامِ . أمّا شَعْرُهُمُ الأسْوَدُ الطَّويلُ فما كانوا يَغْسِلونَهُ قَطُّ ولا يُمَشِّطونَهُ ، بَلْ يَتْرُكونَهُ كما هُوَ مُلَطَّخًا بدِماءِ ضَحاياهُمْ .

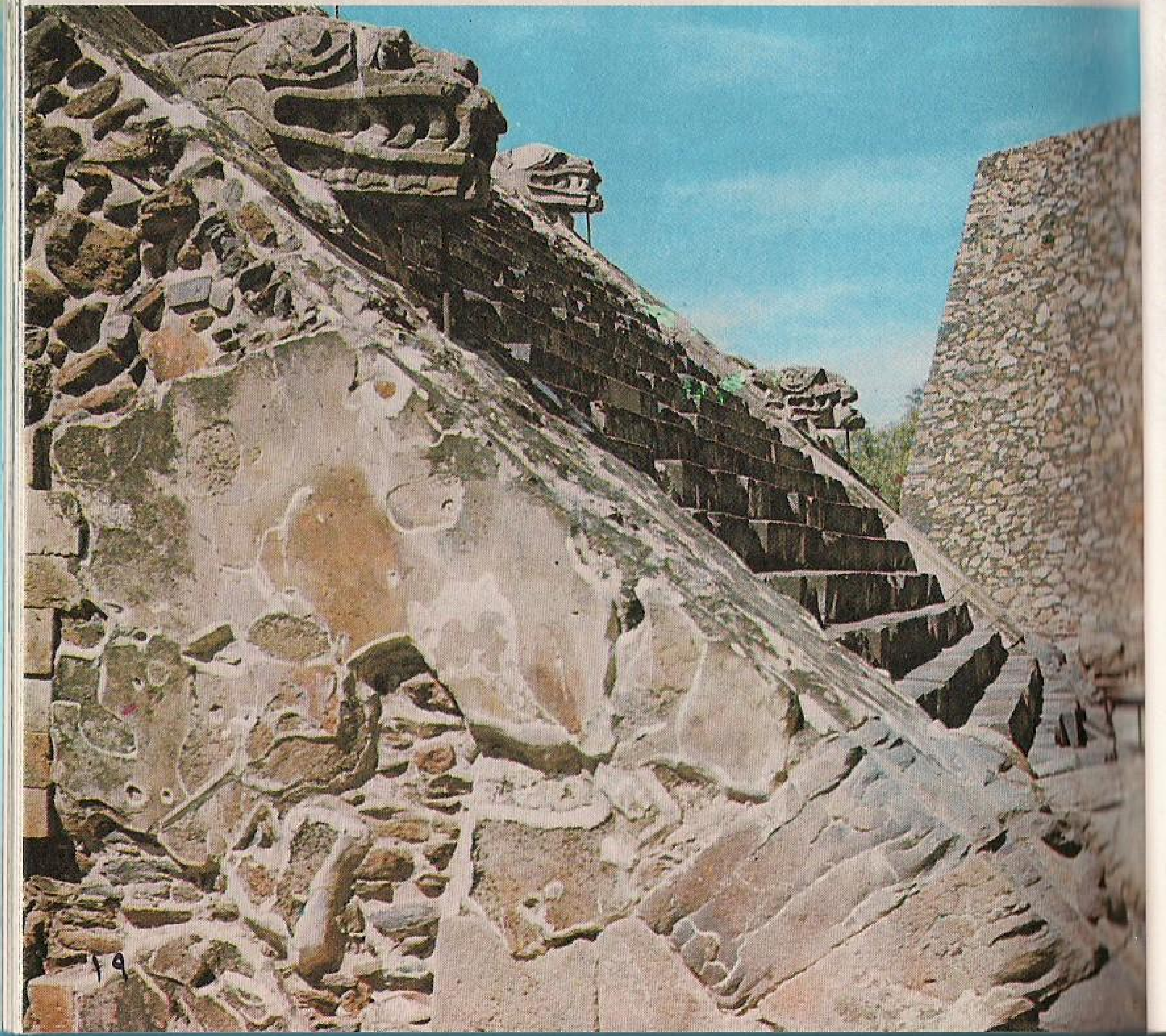
وكَثيرًا ما تَجِدُ بَيْنَ آلافِ الضَّحايا أولٰئِكَ العَبيدَ الَّذينَ يُسيئونَ التَّصَرُّفَ . وأمّا الكَسالى مِنَ العَبيدِ أوِ العُصاةُ أوِ السّارِقونَ فيُرْسَلونَ إلى السّوقِ المَحَلِّيَّةِ

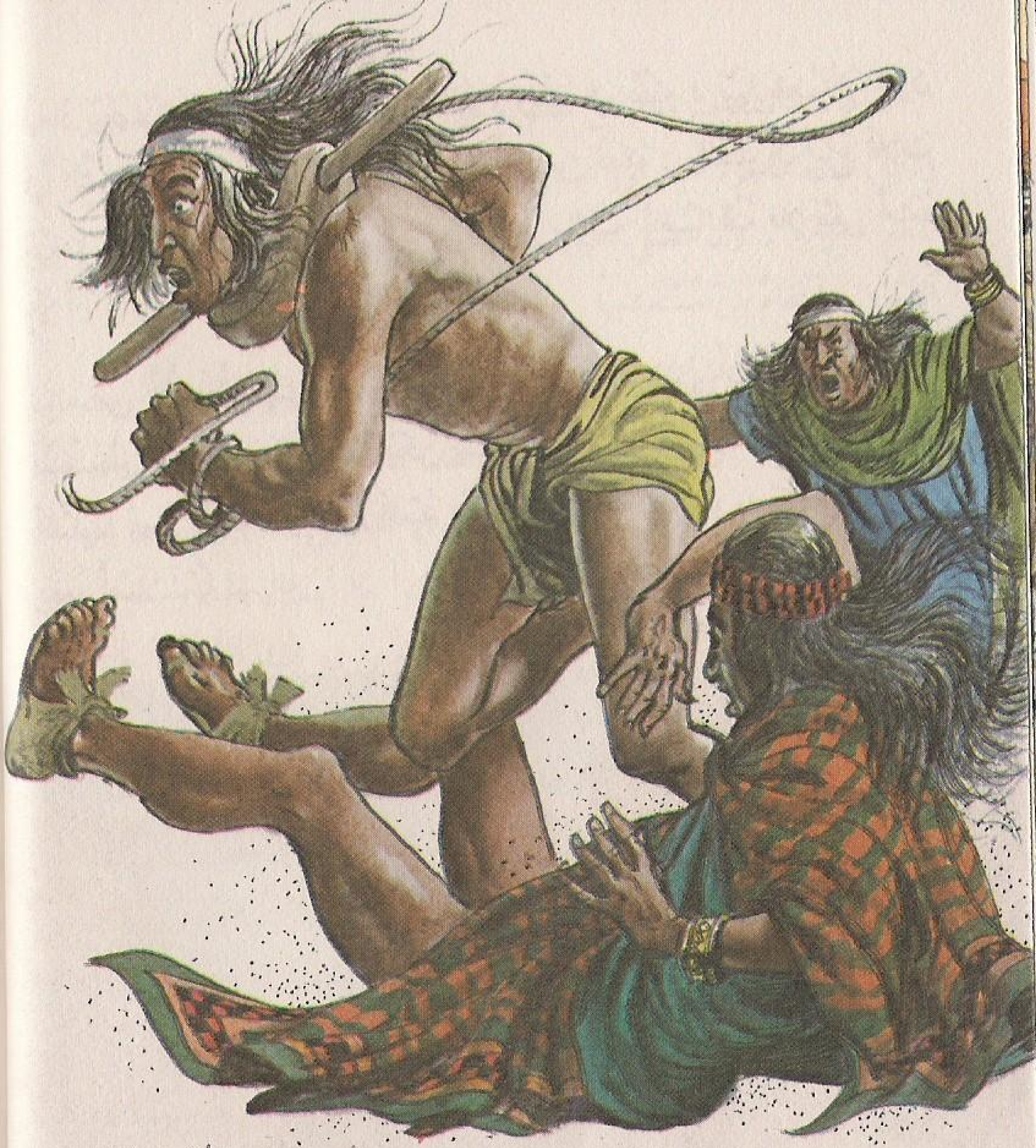


لِيُعادَ بَيْعُهُمْ . فيَقِفُ الواحِدُ مِنْهُمْ هُناكَ ، والنّيرُ في عُنُقِهِ ، بَيْنَما يَقِفُ الرّاغِبونَ في الشِّراءِ يَتَفَحَّصونَهُ مِنْ قِمَّةِ رَأْسِهِ إلى أخْمَصِ قَدَمِهِ . ولِلْعَبْدِ أنْ يُباعَ ثَلاثَ مَرّاتٍ لِثَلاثَةِ مالِكينَ ، فإذا لَمْ يَكُنْ أحَدٌ مِنْ مالِكيهِ راضِيًا عَنْهُ فلا يَبْقى أمامَهُ إلّا أنْ يُباعَ إلى الكَهَنَةِ لِيُضَحّى بِهِ .

عَلى أنَّ الأساليبَ الهَمَجِيَّةَ لَمْ تَمْنَعِ الآزْتِك مِنْ أنْ يُعامِلوا عَبيدَهُمُ المُنْضَبِطينَ مُعامَلَةً حَسَنَةً . فلَمْ يَكُنْ يُسْمَحُ لِلْمالِكِ بأنْ يَبيعَ عَبْدًا مُجِدًّا حَسَنَ السُّلوكِ دونَ رَغْبَتِهِ . ويَسْتَرِدُّ العَبْدُ حُرِّيَّتَهُ إذا دَفَعَ لِلْمالِكِ ما كانَ المالِكُ قَدْ دَفَعَهُ أصْلًا ثَمَنًا لِشِرائِهِ .

الدَّرَجُ المؤدّي إلى هَيْكَلِ كيتْزَلْكُواتْل





عَبْدٌ يُحاوِلُ ٱلفِرارَ

ولأنَّ ٱلعُبوديَّةَ لا تُورَّثُ تِلقائيًّا فَقَدْ تمكَّنَ إتزكُواتل ، وهُوَ ٱبْنُ أَمَةٍ ، مِنَ ٱلوُصولِ إلى ٱلعَرْشِ . وكانَ إتزكُواتل ، بَعْدَ ٱنْتِخابِهِ مَلِكًا في ٱلعام ١٤٢٧ ، ٱلرَّأسَ ٱلمُدبِّرَ وراءَ ٱنْتِشارِ قُوَّةِ ٱلآزْتِك في وادي ٱلمَكْسيكِ كُلِّهِ ، كما كانَ واحِدًا مِنْ أَعْظَمِ مُلوكِهِمْ .



لَمْ تَكُنْ أُمُّ هٰذا ٱلمَلِكِ لِتَسْتَطيعَ ٱلتَّنَبُّؤَ بِقَدَرِ ٱبْنِها يَوْمَ أُلْبِسَتْ ثَوْبًا مُسْتَعارًا لِتَبْدُوَ جَذّابَةً في سوقِ ٱلنِّخاسَةِ ، ويَوْمَ تُرِكَت ، بَعْدَ بَيْعِها ، في قَفَصٍ خَشَبِيٍّ ، ٱنْتِظارًا لِعَوْدَةِ ٱلمالِكِ .

وأَغْلَبُ ٱلظَّنِّ أَنَّ تِلْكَ ٱلأُمَّ عَمِلَتْ في بَيْتِ ٱلمالِكِ ، في ٱلمَطابِخِ ، أَوْ في غَزْلِ ٱلخُيوطِ ، وحِياكَةِ ٱلقُماشِ ، وخِياطَةِ ٱلعَباءاتِ وأَنْواعِ ٱلثِّيابِ ٱلأُخْرى . أَمّا ٱلذُّكورُ مِنَ ٱلعَبيدِ فكانوا يَعْمَلونَ خَدَمًا في ٱلبُيوتِ أَوْ حَمّالينَ ، أَوْ يَكْدَحونَ في ٱلحُقولِ في إِنْتاجِ ٱلذُّرَةِ وٱلفُلْفُلِ وٱلبَنادورى (ٱلطَّماطِمِ) وٱلقَرْعِ وسِوى ذٰلِكَ مِنَ ٱلمَحْصولاتِ .

وكانَ ٱلعَبيدُ يَشْغَلونَ أَدْنى مَرْتَبَةٍ في مُجْتَمَعِ ٱلآزْتِك . ويَأْتي فَوْقَهُمُ ٱلمايك ، ولا يَفْضُلونَ ٱلعَبيدَ إِلّا قَليلًا . وٱلمايك هٰؤلاءِ ، نَظَرِيًّا ، أَحْرارٌ ، نِساءً ورِجالًا ، ولٰكِنْ كانَ عَلَيْهِمْ ، تَأْمينًا لِمَعيشَتِهِمْ ، أَنْ يُسْلِموا أَنْفُسَهُمْ لِما يُشْبِهُ ٱلعُبوديَّةَ . فَقَدْ كانوا يَسْتَأْجِرونَ ٱلأَرْضَ مِنْ نُبَلاءِ ٱلآزْتِك وكَهَنَتِهِمْ ثُمَّ يُقَدِّمونَ لِقاءَ ذٰلِكَ ٱلجُزْءَ ٱلأَكْبَرَ مِنَ ٱلمَحْصولِ ٱلَّذي يُنْتِجونَهُ . كانَتْ حَياةُ ٱلفَرْدِ مِنَ ٱلمايك تاعِسَةً ، فَما يَتَبَقّى لَهُ بَعْدَ دَفْعِ حِصَّةِ ٱلمالِكِ لا يَكادُ يَقومُ بِأَوَدِهِ .

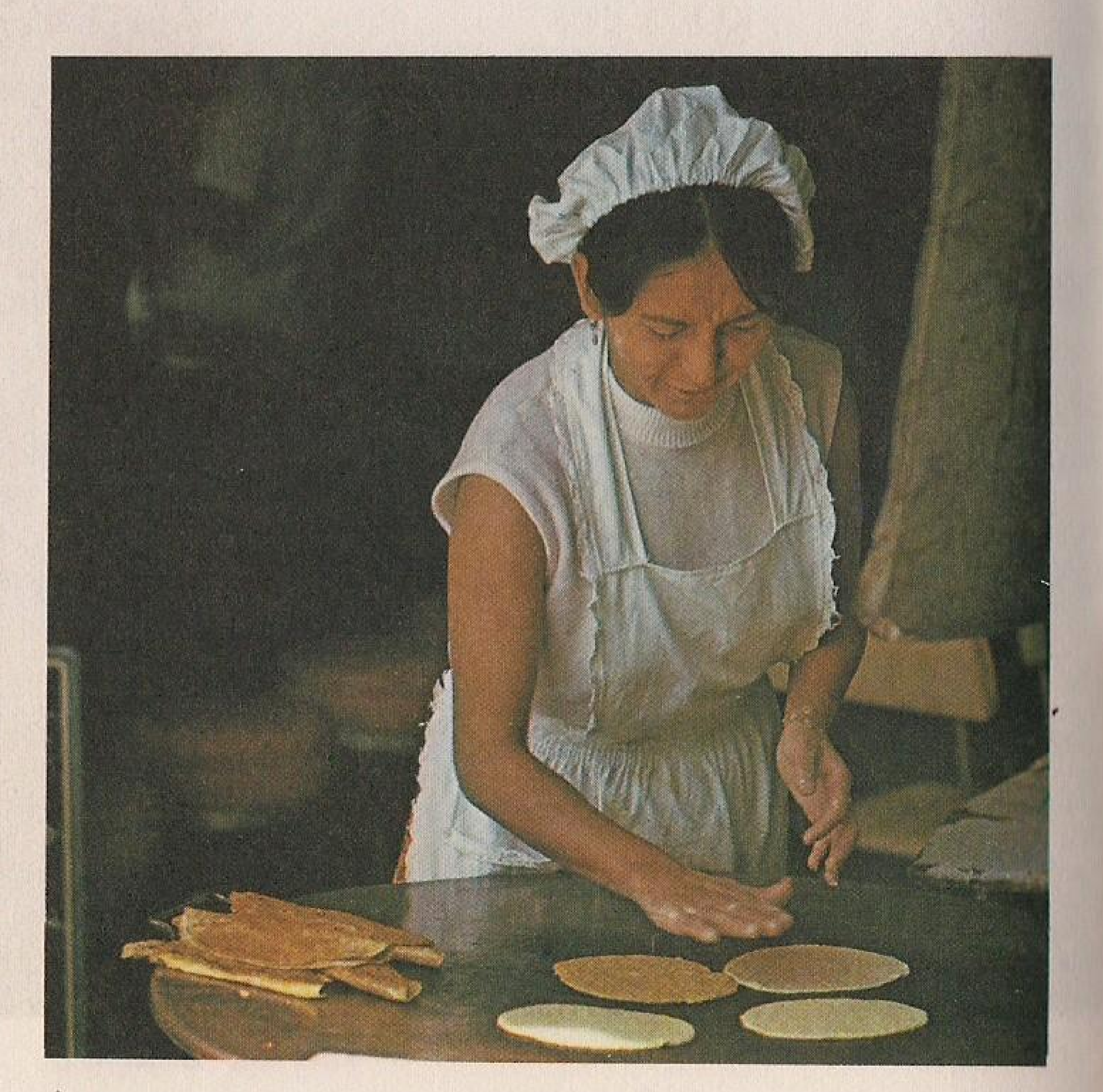
وكانَ بَعْضُ هٰؤُلاءِ ٱلمايك أَفْرادًا أَحْرارًا كَغَيْرِهِمْ مِنْ عامَّةِ أَبْناءِ ٱلعَشائِرِ ٱلعِشْرينَ ٱلَّتي تَتَشَكَّلُ مِنْها أُمَّةُ ٱلآزْتِك . ويَتَحَوَّلُ ٱلحُرُّ إلى مايك إِذا عَجِزَ عَنْ وَفاءِ دَيْنٍ أَوِ ٱرْتَكَبَ جُرْمًا ؛ ذٰلِكَ عِنْدَهُمْ عارٌ شَنيعٌ ، لأَنَّ فيهِ حِرْمانًا لِلْفَرْدِ ولأُسْرَتِهِ مِنَ ٱلانْتِماءِ إلى ٱلعَشيرَةِ . وهٰذا يَعْني حِرْمانَهُمْ مِنْ زِراعَةِ حِصَّتِهِم مِنَ ٱلأَرْضِ ٱلَّتي تَمْلِكُها ٱلعَشيرَةُ .

إلّا أنَّ شَظَفَ ٱلعَيْشِ وٱلأَعْمالَ ٱلشّاقَةَ ٱلمُضْنِيَةَ لَمْ تَكُنْ تُصيبُ المايك وَحْدَهُمْ بَلْ وتُصيبُ سِواهُمْ مِنَ ٱلمُزارِعينَ أَيْضًا . فلَمْ يَكُنِ ٱلآزْتِك يَعْتَمِدونَ على ٱلحَيَواناتِ في جَرِّ مَحاريثِهِمْ وشَقِّ ٱلأَتْلامِ في ٱلأَرْضِ ، بَلِ ٱسْتَخْدَموا أَيْدِيَهُمْ ، مَعَ ما في ذٰلِكَ مِنْ جَهْدٍ ومَشَقَّةٍ . كذٰلِكَ ٱسْتَخْدَموا أداةً كالعَصا يَنْقُبونَ بها ٱلأَرْضَ ، ويَنْقُرونَ نُقْرَةً يُسْقِطونَ فيها بُذورًا ويُغَطّونَها بالتُّرابِ وأَخيرًا يُسَوّونَها بأَقْدامِهِمْ .

الذُّرَةُ







إعْدادُ كَعْكَةِ ذُرَةٍ

ومَحْصولُ ٱلآزْتِك ٱلرَّئيسِيُّ كانَ ٱلذُّرَة . ومِنَ ٱلذُّرَةِ صَنَعوا أَلْوانًا مِنَ المآكِلِ ، مِنْها كَعْكَةُ ٱلذُّرَةِ ، وعَصيدَةُ ٱلذُّرَةِ يُضيفونَ إلَيْها ٱلفِلْفِلَ ٱلحُلْوَ ويُحَلّونَها بالعَسَلِ ، وفَطيرَةُ ٱلذُّرَةِ يَحْشونَها بالفُطْرِ والفاصولِيَةِ وثِمارِ الفاكِهَةِ والضَّفادِعِ والحَلَزونِ والسَّحالي ويُتَبِّلونَها بالفِلْفِلِ ٱلحُلْوِ .

أَمّا حاجَتُهُمْ مِنَ ٱللُّحومِ ، فقَدْ أَمَّنَها ٱلمُزارِعونَ مِنْهُمْ بتَرْبِيَةِ ٱلدُّيوكِ ٱلرّومِيَّةِ ، وأَمَّنَها سُكّانُ ٱلرّيفِ بصَيْدِ ٱلغِزْلانِ والأَرانِبِ .



بُستانٌ عائمٌ كما يَبدو الآنَ

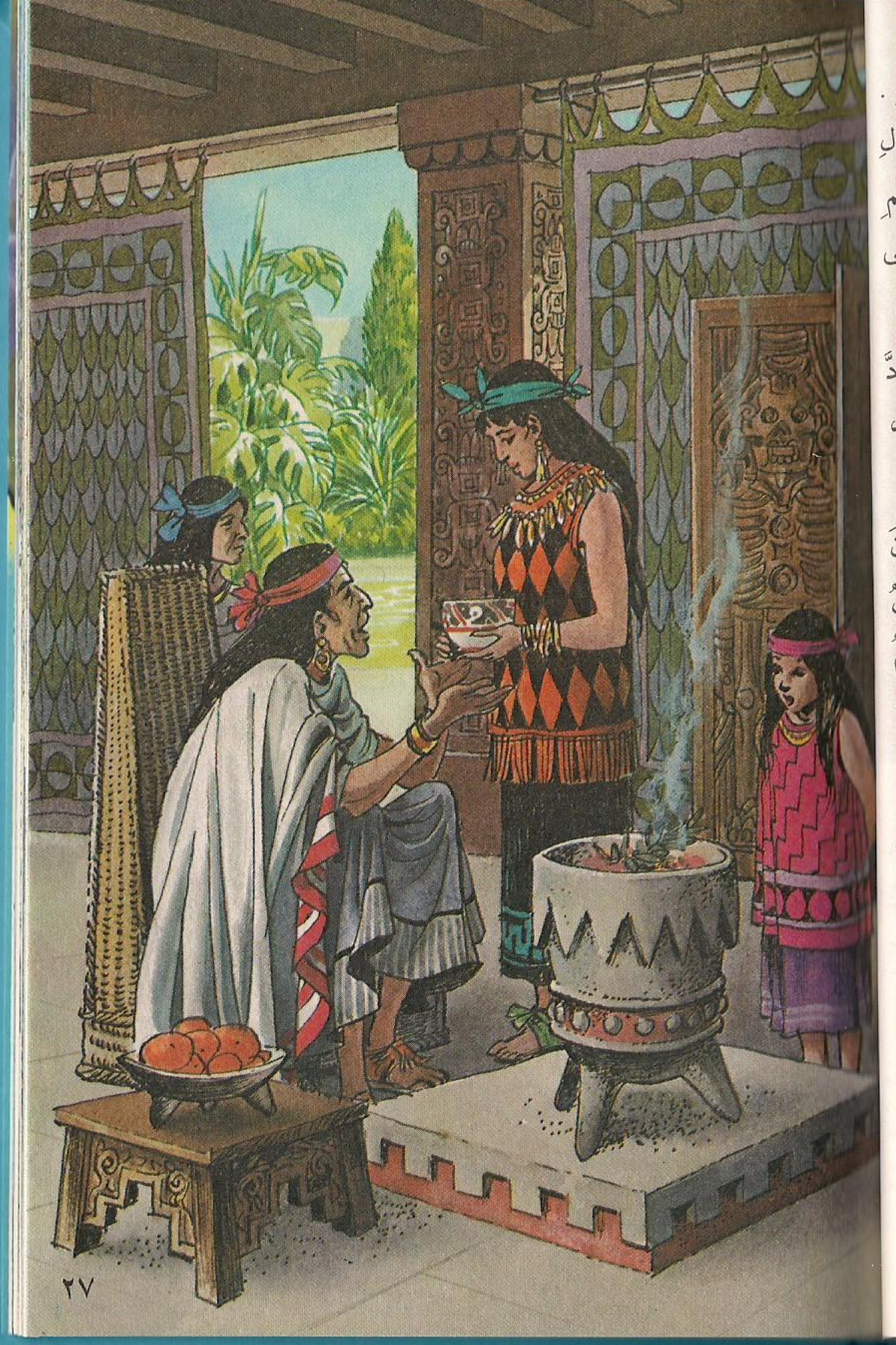
والمَحظوظونَ مِنَ المُزارِعينَ هُمْ أولئكَ الّذينَ كانوا يَزْرعونَ «البَساتينَ العائمَةَ» ، المُثَبَّتَةَ تثْبيتًا دائمًا في مِياهِ بُحَيْرَةِ تِشْكوكو . وكانَ مِثْلُ هٰذِهِ البَساتينِ يُقامُ بإعْدادِ كُتْلَةٍ مُتَشابِكَةٍ مِنَ النَّباتاتِ المائِيَّةِ ثُمَّ فَرْشِها بطينٍ مُنْتَزَعٍ مِنْ قاعِ البُحَيْرَةِ . وهٰذا الطّينُ شَديدُ الخُصوبَةِ ، يُمْكِنُ زَرْعُهُ بالذُّرَةِ والأزْهارِ والفِلْفِلِ والبَنادورى (الطَّماطِمِ) والقَرْعِ وبغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ المَزْروعاتِ .

ورُبَّما وَصَلَ طولُ البُسْتانِ العائِمِ الواسِعِ إلى اثْنَيْنِ وتِسْعينَ مِتْرًا وعَرْضُهُ إلى عَشَرَةِ أمْتارٍ ، مِمّا حَمَلَ المُواطِنينَ مِنَ الآزْتِك على بِناءِ بُيوتِهِم المَصْنوعَةِ مِنَ



القَصَبِ فَوْقَ مِثْلِ هٰذِهِ البَساتينِ . وكانَتْ تِلْكَ المَساكِنُ العائِمَةُ مَأْمونَةً لِأَنَّها تُشَدُّ إلى أرْضِ البُحَيْرَةِ بِوَساطَةِ جُذورِ أشْجارِ الصَّفْصافِ ؛ وَهِيَ أشْجارٌ كانوا يَزْرَعونَها لِهٰذِهِ الغايَةِ .

وأمّا في الرّيفِ فكانَ مُزارِعو الآزْتِك يَعيشونَ في أكْواخٍ مِنْ غُرْفَةٍ واحِدَةٍ مَصْنوعَةٍ مِنْ طينٍ أوْ حَجَرٍ ومَسْقوفَةٍ بالقَشِّ . وفي كُلِّ كوخٍ هَيْكَلٌ صَغيرٌ يَضُمُّ نُقوشَ آلِهَتِهِمْ وتَماثيلَها المَصْنوعَةَ مِنَ الخَشَبِ أوِ الطّينِ أوِ الحَجَرِ . وفيهِ كذٰلِكَ مَوْقِدٌ يَتَّخِذونَ نارَهُ مِنْ أوْراقِ الشَّجَرِ وكِسَرِ الخَشَبِ والصَّبّارِ المُجَفَّفِ .





كانَ ٱلعامَّةُ ٱلأَحْرارُ مِنْ عَشائِرِ ٱلآزْتِك يُشَكِّلونَ أَرْبَعَةَ أَعْشارِ ٱلشَّعْبِ . وكانَتِ ٱلضَّرائِبُ ٱلَّتي يَدْفَعونَها مَوْرِدًا مِنْ مَوارِدِ ٱلحُكومَةِ ، وٱلجَيْشِ ، ورِجالِ ٱلدِّينِ ، وٱلمَلِكِ وبَلاطِهِ . كَما كانوا يَدْفَعونَ ٱلمالَ لِرُؤَساءِ ٱلعَشائِرِ ، ولِمَدارِسِهِم ٱلمَحَلِّيَّةِ ، ولِلْمَشْروعاتِ ٱلاجْتِماعِيَّةِ ٱلَّتي تَرْعى ذَوي ٱلحاجاتِ مِنَ ٱليَتامى وٱلأَرامِلِ وٱلمُسِنِّينَ وٱلمَرْضى .

ولَمْ يَكُنِ ٱلعامَّةُ ٱلأَحْرارُ يَدْفَعونَ ضَرائِبَهُمْ نَقْدًا ، وإِنَّما يُقَدِّمونَ مَوادَّ غِذائِيَّةً أَوْ أَقْمِشَةً أَوْ بَضائِعَ أُخْرى ، أَوْ يَقومونَ بِبِناءِ ٱلبُيوتِ وإِصْلاحِها ، أَوْ بِجَمْعِ ٱلأَخْشابِ وَقودًا لِنارِ ٱلهَياكِلِ .

أَمّا أَفْرادُ طَبَقَةِ ٱلتّيكوتْلي ، أَيِ ٱلطَّبَقَةِ الحاكِمَةِ ، فلَمْ يكونوا يَدْفَعونَ ٱلضَّرائِبَ . ومِنْهُمْ كانَ يُخْتارُ قُوّادُ ٱلجَيْشِ ، ورِجالُ ٱلدَّوْلَةِ ، وٱلقُضاةُ ، ورِجالُ ٱلبَلاطِ . وكانَتْ تُقَدَّمُ إِلَيْهِمِ ٱلبُيوتُ وٱلأَراضي ٱلَّتي تَليقُ بِمَقامِهِمْ ، ويُعامِلُهُمُ ٱلنّاسُ بِٱحْتِرامٍ ، فيُضيفونَ إلى أَسْمائِهِمْ ، كُلَّما خاطَبوهُمْ ، ٱلمَقْطَعَ «تزن» ، ويَعْني عِنْدَهُمْ : يا سَيِّدي .

ومَنْ كانَ أَبوهُ مِنْ طَبَقَةِ ٱلتيكوتْلي ٱلحاكِمَةِ ، يَنْتَمي تِلْقائِيًّا إِلى ٱلطَّبَقَةِ ٱلأَرِسْتُقْراطِيَّةِ ، ويَتَلَقّى أَفْضَلَ أَشْكالِ ٱلتَّرْبِيَةِ بِٱعْتِبارِهِ واحِدًا مِنْ قادَةِ ٱلمُسْتَقْبَلِ .

وٱلتَّرْبِيَةُ عِنْدَهُمْ تَعْني أَمْرًا واحِدًا ، هُوَ ٱلتَدَرُّبُ عَلى ٱلدَّوْرِ ٱلَّذي يَقومُ بِهِ ٱلمَرْءُ ، ذَكَرًا كانَ أَمْ أُنْثى ، وَفْقَ ما قَدَّرَتْهُ لَهُ تَقاليدُ ٱلآزْتِك ومَوْروثُهُمْ . أَمّا صِبْيانُ ٱلآزْتِك فكانَ مُقَدَّرًا لَهُمْ أَنْ يَكونوا جُنودًا .

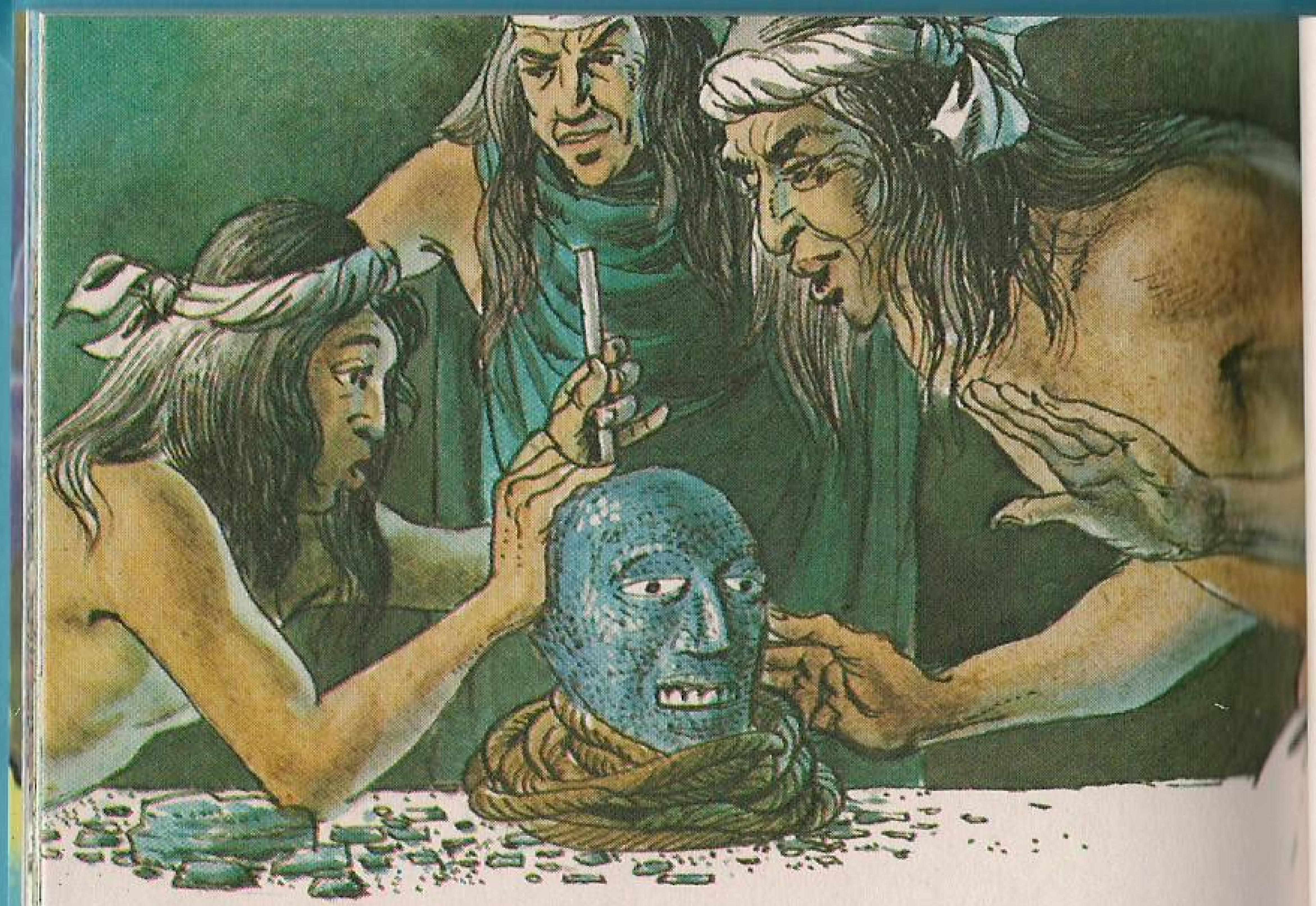
أُسْرَةٌ مِنْ طَبَقَةِ ٱلتّيكوتْلي داخِلَ مَنْزِلِها

وكانَ مُقدَّرًا لِصبْيانِ ٱلآزْتِك أَنْ يُحارِبُوا أَعْداءَ أُمَّتِهِمْ وأَنْ يُزوِّدوا ٱلرُّهْبان بِمَنْ يَحْتاجونَ إِلَيْهِمْ مِنَ ٱلأَسْرى لِيكونوا قرابينَ بَشَرِيَّةً . وكانَ يُفْتَرَضُ في الصِّبْيانِ ، إلى جانِبِ ذٰلِكَ ، أَنْ يَتَّبِعوا خُطُواتِ آبائِهِمْ ، «فيَتَلَقّى» ٱلطِّفْلُ مِنْهُمْ نَبَأَ ذٰلِكَ في أَثْناءِ مَراسِمِ تَسْمِيَتِهِ . تَغْسِلُ ٱلقابِلَةُ ٱلطِّفْلَ وتُوَسِّدُهُ مَهْدًا مِنَ الأَسَلِ (ٱلقَشِّ) ، ثُمَّ تَرُشُّ فَوْقَهُ ماءً وتُصَلّي طالِبَةً أَنْ يَظَلَّ بَعيدًا عَنِ ٱلشَّرِّ وسوءِ ٱلطّالِعِ . ثُمَّ تُقَدِّمُ إلى ٱلطِّفْلِ نَماذِجَ مُصَغَّرَةً عَنْ عُدَّةِ ٱلجُنْدِيِّ ، أَيِ ٱلدِّرْعِ وٱلسِّهامِ ، ورُموزٌ تُمَثِّلُ مِهْنَةَ والِدِهِ . فإذا كانَ ٱلوالِدُ مُزارِعًا قُدِّمَ إِلَيْهِ عَصًا لِنَبْشِ ٱلتُّرابِ وكيسُ حُبوبٍ يُعَلِّقُهُ ٱلمُزارِعونَ في أَعْناقِهِمْ وَقْتَ ٱلبِذارِ .

مَراسِمُ تَسْمِيَةِ الطِّفْلِ







اِبْنُ حِرَفِيٍّ يَعْمَلُ في صُنْعِ رَأْسٍ مَنْقوشٍ بِٱلفُسَيْفِساءِ

أَمّا إذا كانَ ٱلوالِدُ حِرَفِيًّا فَيُقَدَّمُ للطِّفْلِ أَدَواتٌ تُناسِبُ حِرْفَةَ والِدِهِ ؛ فَهِيَ أَدَواتٌ لِصِناعَةِ أَزْياءٍ مِنَ ٱلرِّيشِ وأَغْطِيَةٍ لِلرَّأْسِ وعَباءاتٍ ومَراوِحَ وأَشْرِطَةٍ تُطَوِّقُ ٱلسَّواعِدَ ، أَوْ هِيَ أَدَواتٌ لِلرَّسْمِ ، أَوْ لِصِناعَةِ ٱلإِبَرِ ٱلنُّحاسِيَّةِ وصَنانيرِ ٱلصَّيْدِ وٱلفُؤوسِ ٱلصَّغيرَةِ وٱلمَصاغِ ٱلذَّهَبِيِّ وٱلفِضِّيِّ وبُراتِ (حَلَقاتِ) ٱلمِنْخَرِ والشِّفاهِ . ومِنَ ٱلحِرَفِيّينَ مَنْ كانَ يَعْمَلُ في صِناعَةِ ٱليَشْبِ وٱلفَيْروزِ وٱلصُّخورِ ٱلبِلَّوْرِيَّةِ وٱلجَمَشْتِ ، وسِوى ذٰلِكَ مِنَ ٱلأَحْجارِ ٱلكَريمَةِ . أَوْ يَعْمَلُ في حِرْفَةِ ٱلفَخّارِ ، وٱلخِياطَةِ ، وٱلبِناءِ ، أَوْ في حِياكَةِ ٱلسَّجّادِ . وأَيًّا تَكُنِ ٱلحِرْفَةُ فَٱلمَأْلوفُ أَنْ يَتَّبِعَ الابْنُ خُطى أَبيهِ .

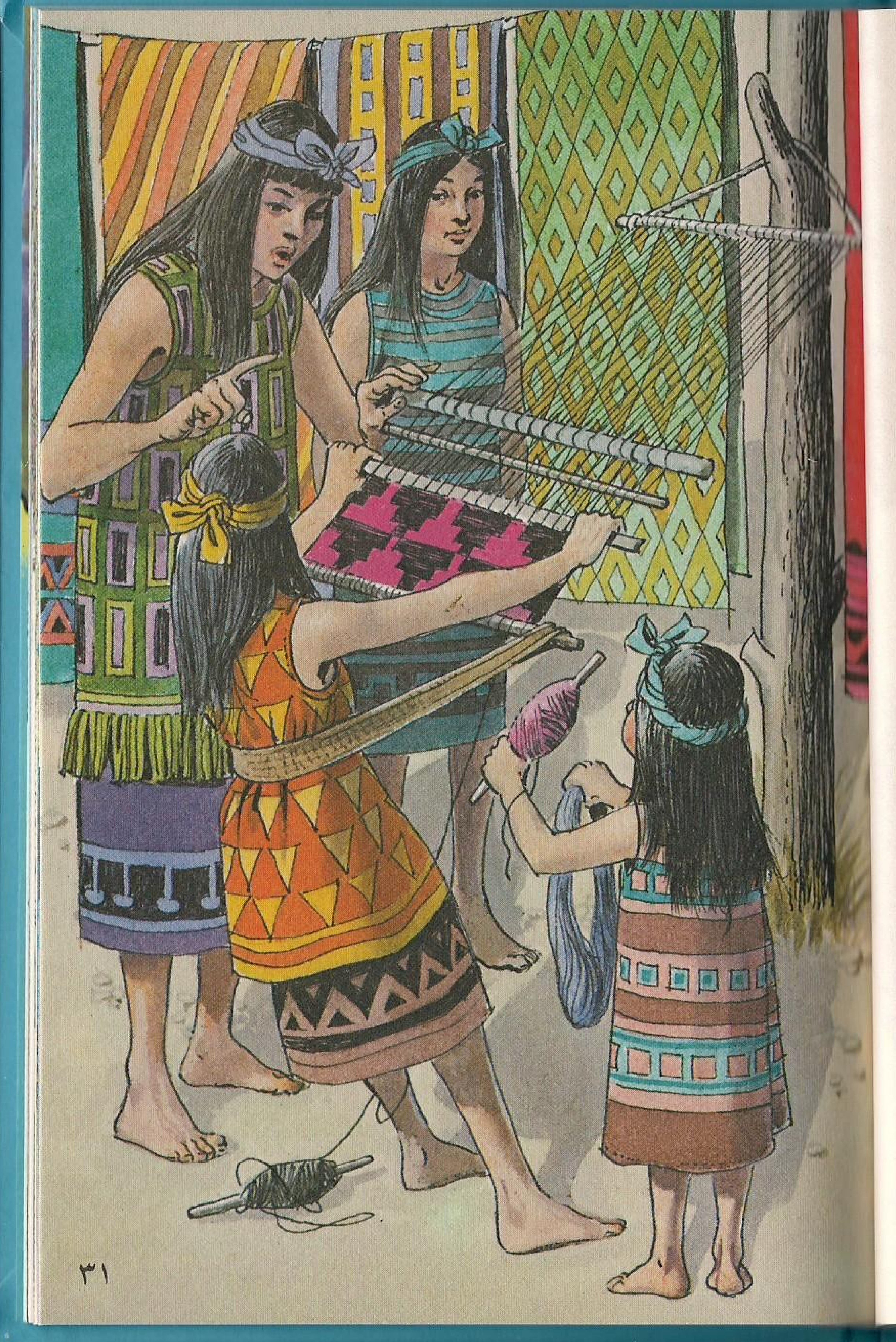
أَمّا ٱلفَتَياتُ ، فَقَدْ كانَ مُقَدَّرًا لَهُنَّ أَنْ يَكُنَّ زَوْجاتٍ وأُمَّهاتٍ ورَبّاتِ مَنازِلَ . لِذا فَقَدْ كُنَّ يُزَوَّدْنَ ، في أَثْناءِ مَراسِمِ تَسْمِيَتِهِنَّ ، بِنَماذِجَ مُصَغَّرَةٍ عَنْ أَدَواتِ ٱلنِّساءِ ، كٱلمِغْزَلِ وسَلَّةِ ٱلأَشْغالِ وٱلمِكْنَسَةِ .

وكانَتِ ٱلأُمَّهاتُ بَعْدَ مُرورِ خَمْسِ سَنَواتٍ على تَسْمِيَةِ بَناتِهِنَّ يَبْدَأْنَ بتَدْريبِهِنَّ عَلى ما قُسِمَ لَهُنَّ مِنْ دَوْرٍ في ٱلحَياةِ ، كَٱلحِياكَةِ ، وجَرْشِ ٱلذُّرَةِ ، وإِعْدادِ ٱلطَّعامِ وٱلاهْتِمامِ بٱلأَطْفالِ . ويَقومُ ٱلصِّبْيانُ ، في ٱلوَقْتِ نَفْسِهِ ، بمُساعَدَةِ آبائِهِمْ في ٱلحُقولِ أَوْ في ٱلمَشاغِلِ ، فيَتَعَلَّمونَ ٱلمَهاراتِ ٱلَّتي يَحْتاجونَ إِلَيْها في عَمَلِ ٱلمُسْتَقْبَلِ .

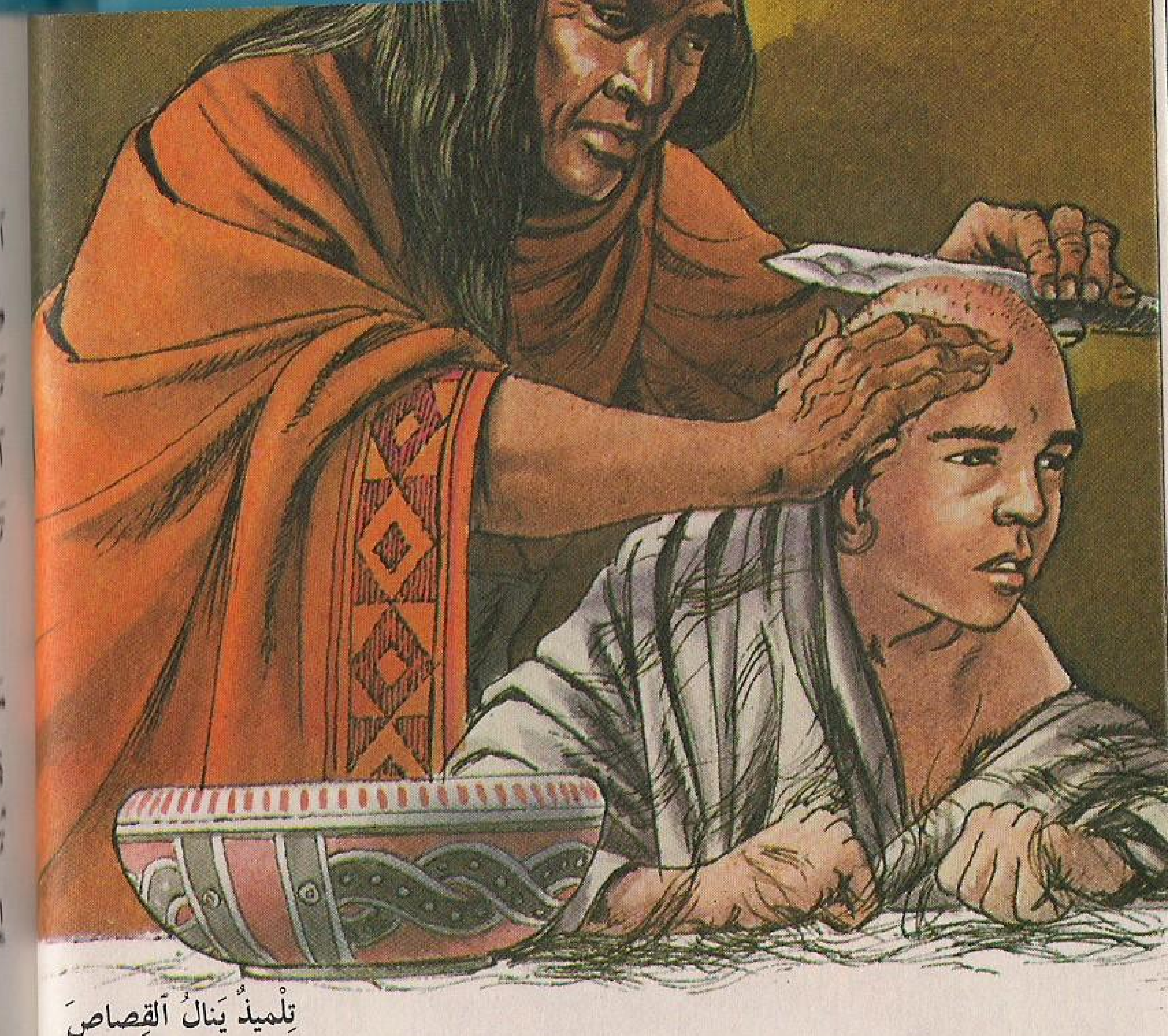
وتَعَلَّمَ ٱلآزْتِك أَنْ يَقْبَلوا قَواعِدَ حَياتِهِمْ هٰذِهِ قَبولًا تامًّا لأَنَّهُمْ نَشَأوا على طاعَةِ ٱلسُّلْطَةِ طاعَةً مُطْلَقَةً . فإِنَّهُمْ كانوا ، مُنْذُ أَوَّلِ طُفولَتِهِمْ ، يُعَلَّمونَ طاعَةَ ٱلمَلِكِ ، ورِجالِ ٱلدِّينِ ، وٱلقانونِ وٱلمُسِنّينَ في ٱلعَشيرَةِ ، وٱلوالِدين ، وفَوْقَ هؤُلاءِ جَميعًا يُعَلَّمونَ طاعَةَ ويتْزيلوپُتْشْتْلي وغَيْرِهِ مِنْ آلِهَتِهِمْ . بَلْ كانَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُضَحُّوا بأَنْفُسِهِمْ قَرابينَ لِلْآلِهَةِ إِذا طُلِبَ إِلَيْهِمْ أَنْ يَفْعَلُوا ذٰلِكَ . وكَثيرونَ مِنْهُمْ فَعَلوا ذٰلِكَ راضينَ بَلْ مُغْتَبِطينَ . كانوا يُؤْمِنونَ أَنَّ ٱلآلِهَةَ تَتَغَذّى بِدَمِهِمْ ، فَلْتَحْصَلِ ٱلآلِهَةُ ، إِذًا ، عَلى هٰذا ٱلدَّمِ . وٱعْتَقَدَ ٱلآزْتِك ، عَلى أَيِّ حالٍ ، أَنَّ ٱلمَوْتَ في ساحَةِ ٱلوَغى أَوْ على مَذْبَحِ ٱلتَّضْحِيَةِ إِنَّما هُوَ مَصيرٌ عَظيمٌ . فإِنَّ ٱلرَّجُلَ مِنْهُمْ إِذا ماتَ مِثْلَ هٰذِهِ ٱلميتَةِ أَسْرَعَتْ روحُهُ في ٱلارْتِقاءِ إِلى جَنَّةِ ٱلشَّمْسِ ، جَنَّةِ إِلٰهِهِمْ ويتْزيلوپُتْشْتْلي .

فكَيْفَ تَعَلَّمَ ٱلآزْتِك مِثْلَ هٰذِهِ ٱلطّاعَةِ ٱلعَمْياءِ ؟ تَعَلَّموها عَنْ طَريقِ ٱلقِصاصِ ٱلصّارِمِ . فقِصاصُ ٱلوَلَدِ ٱلعاصي أَوِ ٱلكَسولِ ٱلجَلْدُ أَوْ رَفْعُهُ فَوْقَ نارٍ مِنَ ٱلفِلْفِلِ ٱلحارِّ ٱلمُحْتَرِقِ وإِجْبارُهُ عَلى ٱسْتِنْشاقِ ٱلدُّخانِ ٱلمُؤْذي . أَوْ يَكونُ ٱلقِصاصُ في غَرْزِ أَشْواكِ ٱلصَّبّارِ في جَسَدِهِ ثُمَّ رَبْطِ يَدَيْهِ وقَدَمَيْهِ ورَمْيِهِ يَومًا كامِلًا فَوْقَ أَرْضٍ مُشْبَعَةٍ بالماءِ .

ومِثْلُ هٰذا ٱلقِصاصِ كانَ يُنَفَّذُ في ٱلبَيْتِ وٱلمَدْرَسَةِ عَلى السَّواءِ .



فَتاةٌ مِنَ ٱلآزْتِك في مَرْحَلَةِ ٱلتَعَلُّمِ



تِلْميذٌ يَنالُ ٱلقِصاصَ

مَدارِسُ ٱلآزْتِك نَوعانِ. ٱلأَوَّلُ لأَوْلادِ ٱلعامَّةِ ، وفيهِ كانَ ٱلصِّبْيانُ يَتَعلَّمونَ ٱلقِتالَ ومُمارَسَةَ ٱلشَّعائِرِ ٱلدِّينيَّةِ . وكانَ ٱلأَوْلادُ ، رَغْبَةً في تَنْشِئَتِهِمْ عَلى ٱلخُشُونَةِ ، يُكْرَهونَ عَلى ٱلنَّوْمِ في غُرَفٍ بارِدَةٍ يَلْعَبُ فيها ٱلهَواءُ ولَيْسَ عَلَيْهِمْ إلّا غِطاءٌ رَقيقٌ . ومَنْ يُسِئِ ٱلسُّلوكَ مِنْهُمْ أَوْ يَتَكاسَلْ يُعاقَبْ بإحْراقِ شَعْرِ رَأْسِهِ وحِلاقَتِهِ .

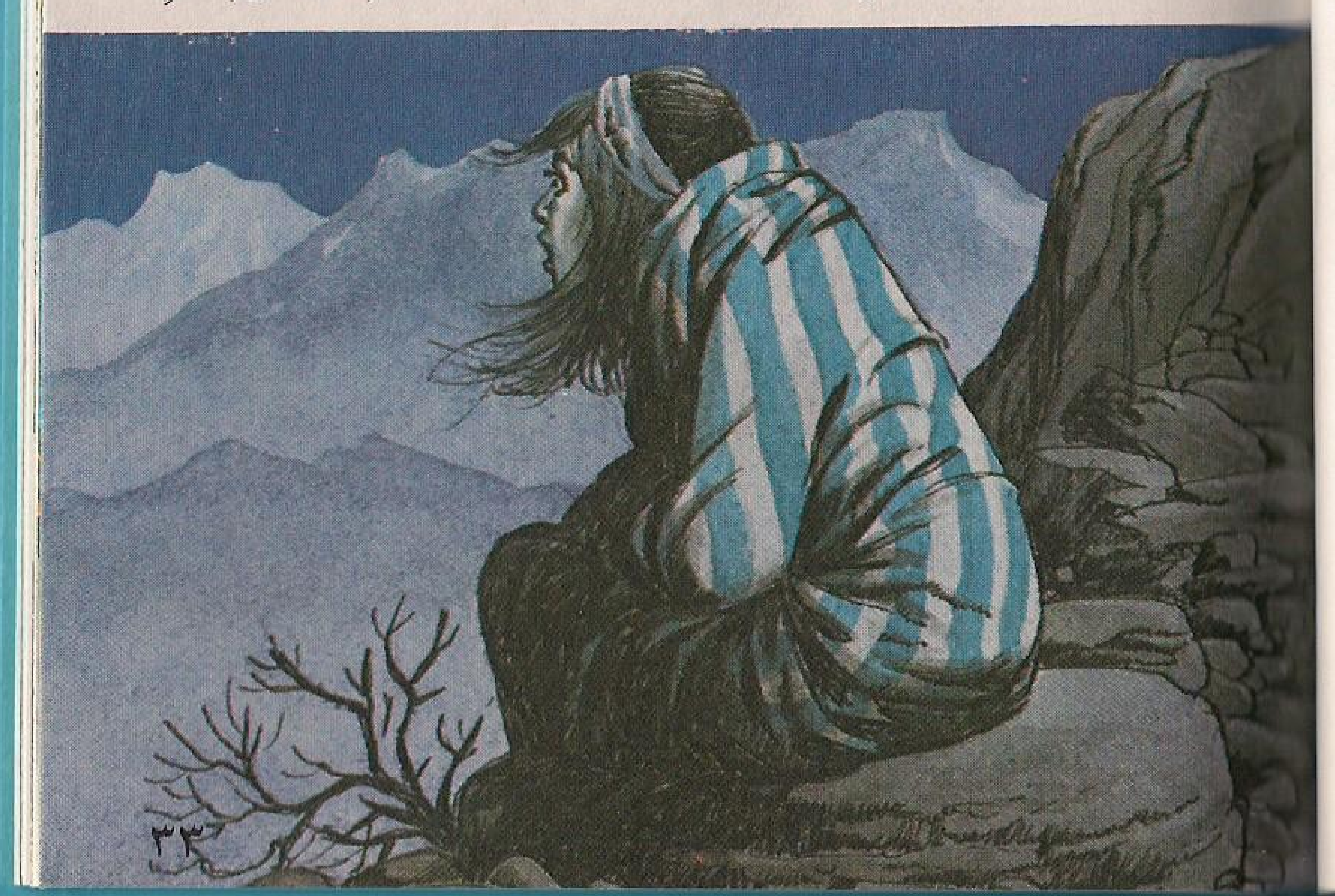
وفي ٱلنَّوْعِ ٱلثّاني مِنَ ٱلمَدارِسِ ، ويُسَمّونَها ٱلكالْمِكاك ، يَتَعلَّمُ أَوْلادُ ٱلطَّبَقَةِ ٱلحاكِمَةِ ، طَبَقَةِ ٱلتّيكوتْلي . ويَعْرِفُ ٱلصِّبْيانُ في هٰذا ٱلنَّوْعِ حَياةً أَشَدَّ قَساوَةً ، إذْ يَقومونَ بِٱلتَّنْظيفِ وٱلكَنْسِ وحَفْرِ ٱلأَرْضِ وسِوى ذٰلِكَ مِنَ ٱلأَعْمالِ ٱلوَضيعَةِ ، ويُحْرَمونَ ، في أَيّامٍ يَخْتارُها لَهُمْ مُعَلِّموهُمْ ، مِنَ ٱلطَّعامِ . .



وكانَ عَلى ٱلصِّبْيانِ ، في بَعْضِ ٱللَّيالي ، أَنْ يَتَسَلَّقوا ٱلجِبالَ حَيْثُ تَتَلاعَبُ ٱلرِّياحُ بَيْنَ ٱلصُّخورِ وتُعْوِلُ ، وحَيْثُ تَتَراءى أَشْباحٌ يَحْسَبونَها عَفاريتَ ٱللَّيْلِ . وكانَ عَلَيْهِمْ في تِلْكَ ٱللَّيالي أَنْ يَغْرِزوا في آذانِهِمْ وأَرْجُلِهِمْ أَشْواكَ ٱلصَّبّارِ حَتّى تَسيلَ دِماؤُهُمْ . كما كانَ عَلَيْهِمْ ، في أَوْقاتٍ أُخْرى ، أَنْ يَسْتَيْقِظوا في مُنْتَصَفِ ٱللَّيْلِ ويَرْموا بِأَنْفُسِهِمْ في بِرَكٍ مِنَ ٱلماءِ ٱلشَّديدِ ٱلبُرودَةِ . كُلُّ ذٰلِكَ ، لِيَتَعَلَّمَ تَلاميذُ ٱلكالْمِكاك كَيْفَ يَتَغَلَّبونَ عَلى ٱلخَوْفِ ويَهْزَأونَ بِٱلأَلَمِ وٱلمُنَغِّصاتِ .

أَمّا ٱلتِّلْميذاتُ في مَدارِسِ ٱلكالْمِكاك لِلْبَناتِ ، فكُنَّ يَتْرُكْنَ فِراشَهُنَّ مَرّاتٍ في ٱللَّيْلَةِ ٱلواحِدَةِ لِيُؤَدِّينَ ٱلصَّلاةَ ويُحْرِقْنَ ٱلبَخورَ لِلآلِهَةِ . وكانَ ٱلكَلامُ في أَوْقاتِ ٱلطَّعامِ وفي أَوْقاتٍ أُخْرى مِنَ ٱلنَّهارِ مُحَرَّمًا عَلَيْهِنَّ . وٱلفَتاةُ ٱلَّتي تُحادِثُ صَبِيًّا تُعاقَبُ عِقابًا صارِمًا جِدًّا . وأَمّا ٱلَّتي تَتَوَقَّفُ عَنِ ٱلعَمَلِ دونَ إذْنٍ ، ولَوْ لِلَحْظَةٍ واحِدَةٍ ، فإنَّها تُضْرَبُ بِٱلسِّياطِ .

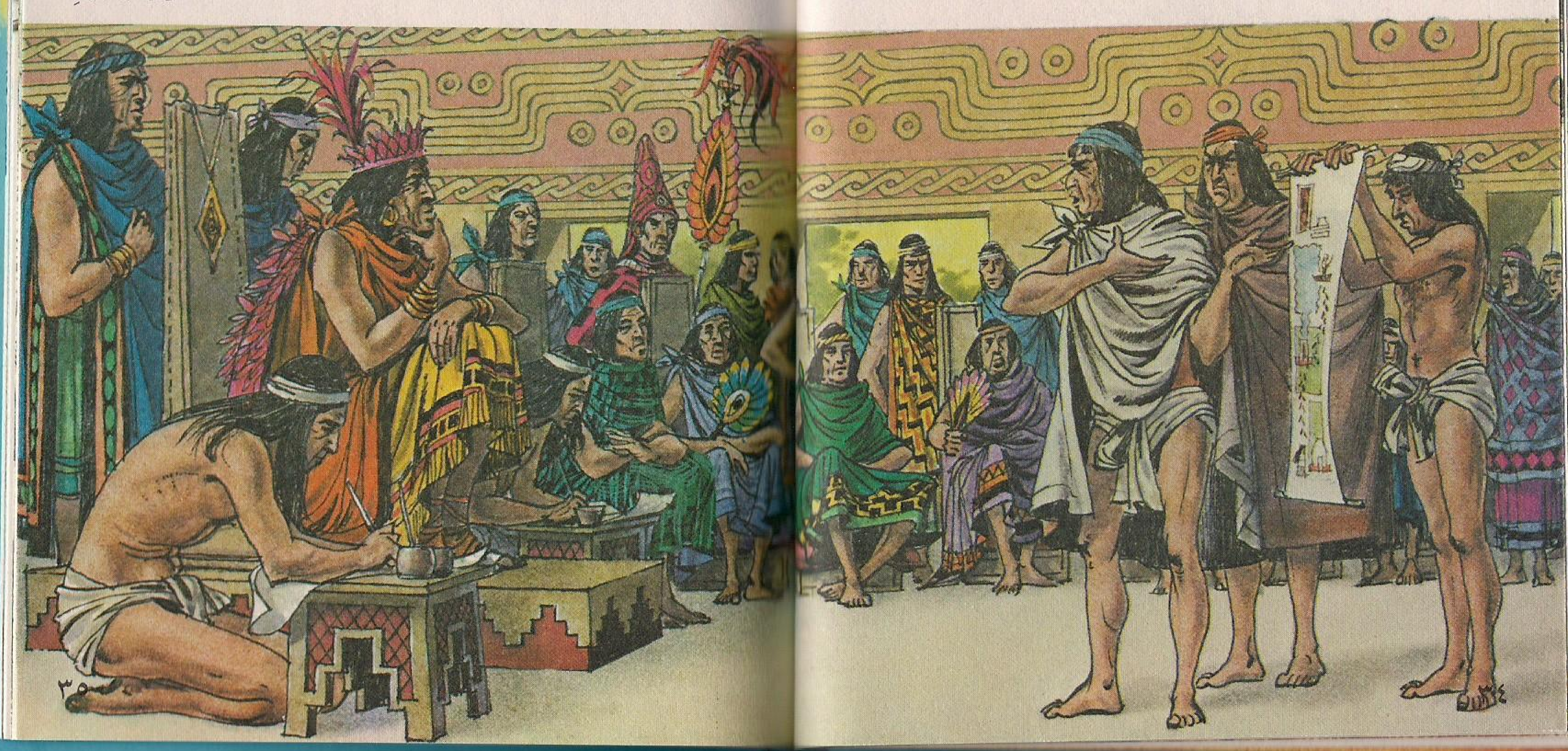
صَبِيٌّ مِنَ ٱلكالْمِكاك يَجْلِسُ وَحيدًا في ٱللَّيْلِ عَلى سَفْحِ جَبَلٍ



ويُعاقَبُ تلاميذُ ٱلكالمِكاك عِقابًا صارِمًا على عِصْيانِهِم ٱلأَوامِرَ. ذٰلِكَ أَنَّهُ يُتَوَقَّعُ مِنْ هؤُلاءِ في مُسْتَقْبَلِ حَياتِهِمْ أَنْ يَكونوا مَثَلًا تَحْتَذِيهِ طَبَقَةُ ٱلعامَّةِ. وهٰذا ما جَعَلَ عِقابَهُمْ على مُخالَفَةِ ٱلأَنْظِمَةِ أَشَدَّ مِنْ عِقابِ سِواهُمْ.

إنَّ مَنْ يَسْرِقُ أَباهُ مِنْ أَوْلادِ ٱلعامَّةِ يُباعُ في سوقِ ٱلعَبيدِ. أَمّا ٱلنَّبيلُ ٱلسّارِقُ فَيُحْكَمُ عَلَيْهِ بِٱلمَوْتِ. وٱلعامِّيُّ إذا سَكِرَ يُحْلَقُ شَعْرُ رَأْسِهِ ويُهْدَمُ بَيْتُهُ، وإذا ثَبَتَتْ عَلَيْهِ تُهْمَةُ السُّكْرِ ثانِيَةً حُكِمَ عَلَيْهِ بِٱلمَوْتِ. وأَمّا ٱلنُّبَلاءُ فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ فُرْصَةٌ ثانِيَةٌ، فَمَنْ وُجِدَ مِنْهُمْ سَكْرانَ حَكَمَتْ عَلَيْهِ ٱلمَحْكَمَةُ ٱلعُلْيا بِٱلمَوْتِ.

وتَنْعَقِدُ ٱلمَحْكَمَةُ ٱلعُلْيا في ٱلقَصْرِ ٱلمَلَكِيِّ في تِنوتْشْتِتْلان مِنَ ٱلفَجْرِ حَتّى غِيابِ ٱلشَّمْسِ. ويَرْئِسُ ٱلمَحْكَمَةَ قاضٍ يُسَمّونَهُ سيواكُواتْل، يَلي ٱلمَلِكَ رُتْبَةً. ويَبُتُّ سيواكُواتْل، ومُعاوِنوه مِنَ ٱلقُضاةِ، في سائِرِ ٱلقَضايا ٱلمُتَّصِلَةِ بِٱلنُّبَلاءِ وكِبارِ رِجالِ ٱلدَّوْلَةِ. ويَقْضونَ بِٱلقَضايا ٱلمُعَقَّدَةِ، كَذٰلِكَ، كَٱلخِلافِ ٱلنّاشِبِ حَوْلَ ٱلحُدودِ ٱلفاصِلَةِ بَيْنَ ٱلحُقولِ. وأَمّا ٱلعامَّةُ فَلَهُمْ مَحاكِمُ مَحَلِّيَّةٌ صَغيرَةٌ، ويُقاضَوْنَ على جَرائِمِهِم ٱلخَطيرَةِ أَمامَ مَحاكِمَ أَعْلى.



قاعةُ ٱلمَحْكَمةِ

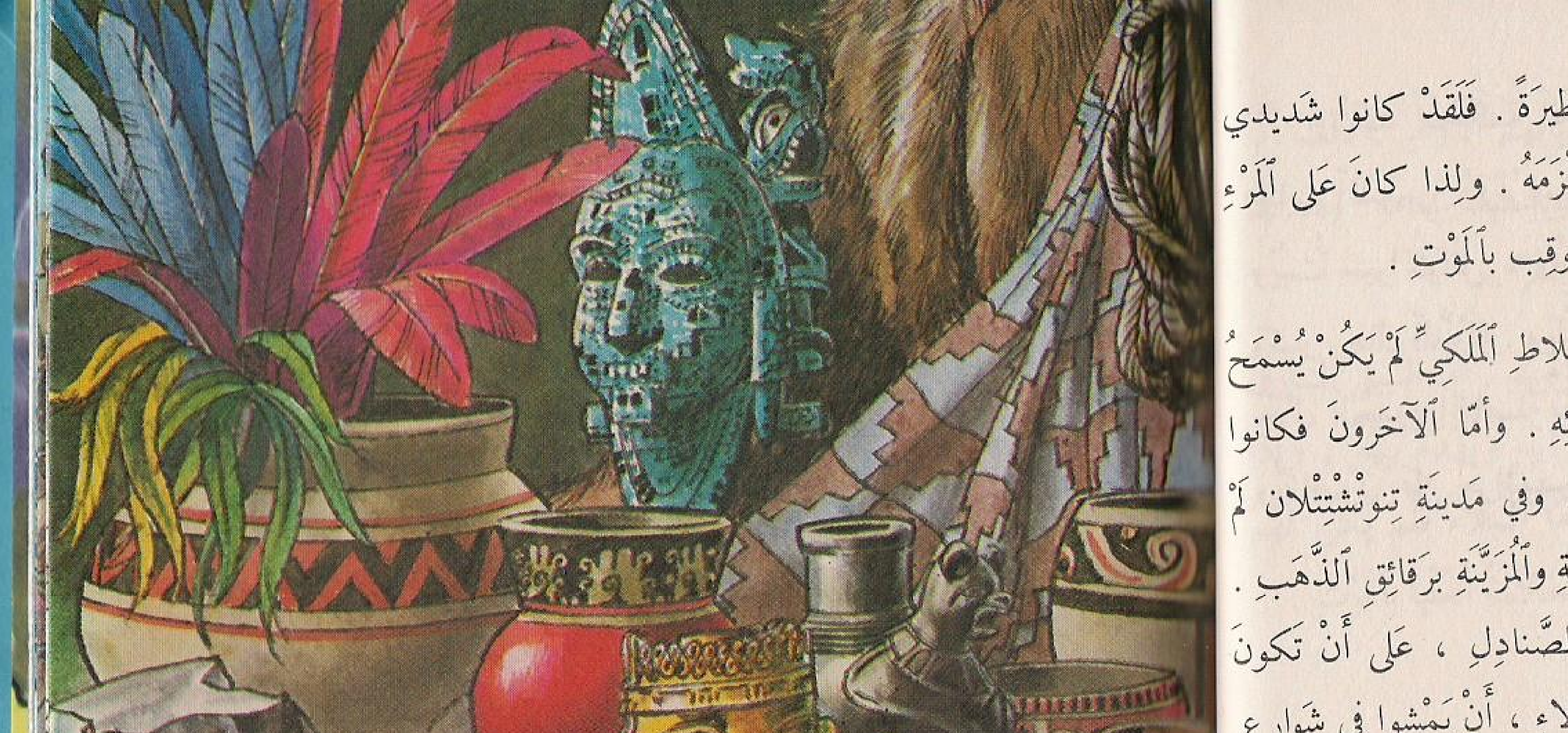
وللأزْتِك أَفْكارٌ غَريبَةٌ عمّا يَعْتَبِرونه جرائِمَ خَطيرَةً . فَلَقَدْ كانوا شَديدي الحِرْصِ على أَنْ يَعْرِفَ الفَرْدُ في المُجْتَمَعِ مَكانَهُ فيَلْزَمَهُ . ولِذا كانَ عَلى المَرْءِ أَنْ يَرْتَدِيَ مِنَ الثِّيابِ ما يُناسِبُ رُتْبَتَهُ وطَبَقَتَهُ وإِلّا عُوقِبَ بالمَوْتِ .

وانْتِعالُ الصَّنْدَلِ مِثالٌ عَلى ذلِكَ . في داخِلِ البَلاطِ المَلَكِيِّ لَمْ يَكُنْ يُسْمَحُ بانْتِعالِ الصَّنْدَلِ إلّا لِرَجُلَيْنِ : المَلِكِ ورَئيسِ وُزَرائِهِ . وأَمّا الآخَرونَ فكانوا يَمْشونَ حُفاةً . ومُخالَفَةُ ذلِكَ جَريمَةٌ عِقابُها المَوْتُ . وفي مَدينَةِ تِنوتْشْتِتْلان لَمْ يَكُنْ يُسْمَحُ لِغَيْرِ النُّبَلاءِ بانْتِعالِ الصَّنادِلِ الثَّمينَةِ المُلَوَّنَةِ والمُزَيَّنَةِ بِرَقائِقِ الذَّهَبِ . ويُسْمَحُ لِمَنِ اجْتَرَحَ البُطولاتِ مِنَ الجُنودِ بانْتِعالِ الصَّنادِلِ ، عَلى أَنْ تَكونَ رَخيصَةً وعادِيَّةً . وعَلى سائِرِ أَفْرادِ الشَّعْبِ ، سِوى هؤُلاءِ ، أَنْ يَمْشوا في شَوارِعِ المَدينَةِ حُفاةً .



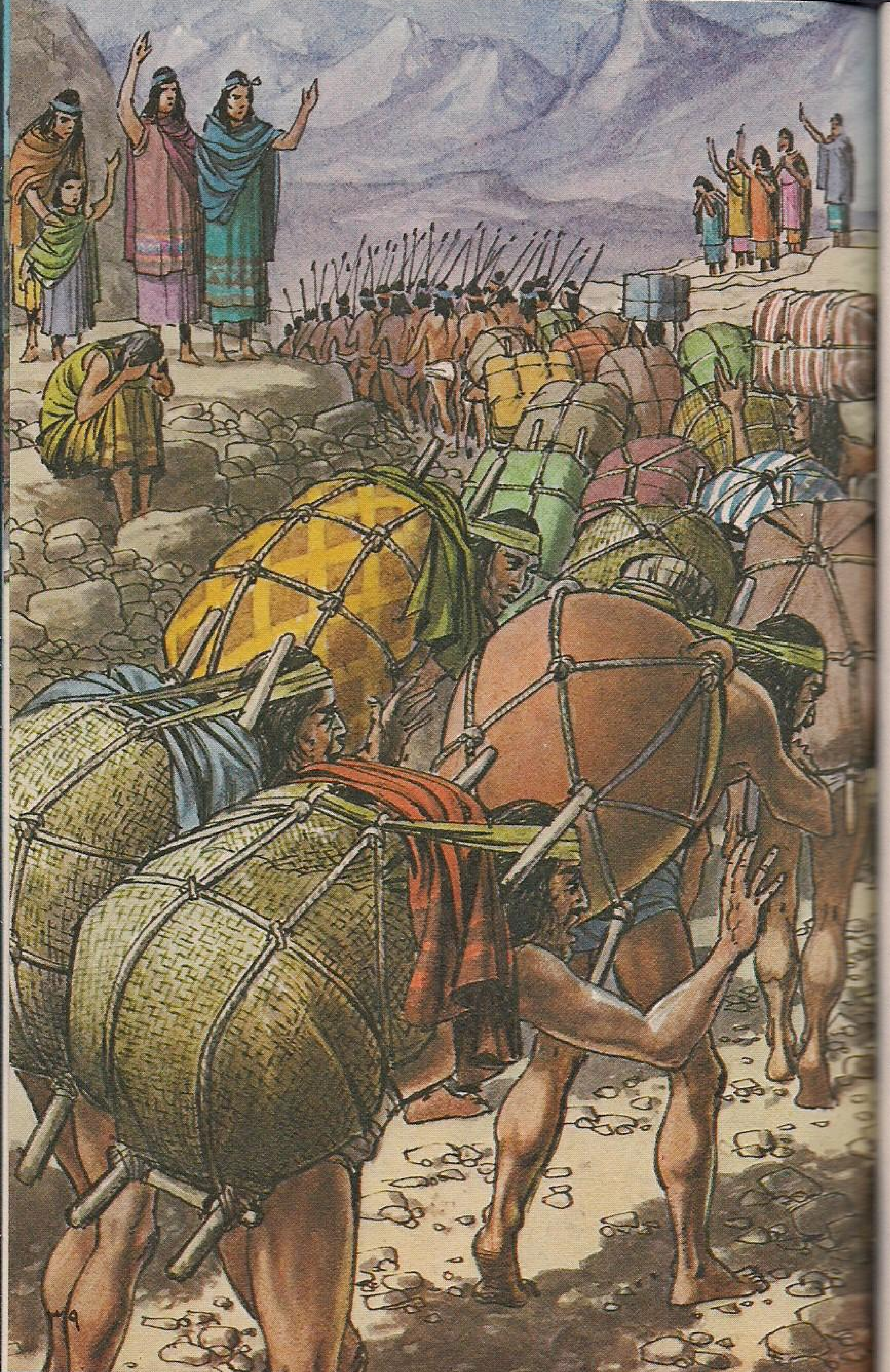
وكانَتْ قَوانينُ دَوْلَةِ الأزْتِك تُطَبَّقُ بِصَرامَةٍ مُتَناهِيَةٍ . فإمّا الطّاعَةُ وإمّا العِقابُ الصّارِمُ . عَلى أَنَّهُ كانَ لِلتُّجّارِ مِنَ الأزْتِك قَوانينُ خاصَّةٌ ، فكَأَنَّهُمْ كانوا يُشَكِّلونَ دَوْلَةً داخِلَ دَوْلَةٍ . فهؤُلاءِ كانَ لَهُمْ ، كُلَّ عامٍ ، رِحْلاتٌ تِجارِيَّةٌ طَويلَةٌ داخِلَ بِلادِ الأزْتِك وخارِجَها . وكانَ لَهُمْ إِلٰهُهُمُ الخاصُّ ، ويُسَمّونَهُ يَكْتيكوتْلي (وهُوَ يَعْني في لُغَتِهِم الإلهَ المُرْشِدَ) ، ومَحاكِمُهُمُ الخاصَّةُ ،





ونِقابَتُهُم الخاصَّةُ الشَّبيهَةُ باتِّحاداتِ التُّجّارِ اليَوْمَ ، وكانوا يَعيشونَ في العاصِمَةِ تِنوتْشْتِتْلان في حَيِّهِم الخاصِّ . ولَمْ يَكُنْ يُسْمَحُ لأَحَدٍ أَنْ يُمارِسَ التِّجارَةَ أَوْ أَنْ يَنْتَسِبَ إلى النِّقابَةِ إلّا إذا كانَ ابْنَ تاجِرٍ . فالتِّجارَةُ عِنْدَهُمْ أَشْبَهُ بِنادٍ مَحْدودِ العُضْوِيَّةِ بِفَريقٍ مُعَيَّنٍ .

وإذا جاءَ وَقْتُ إِعْدادِ الحَمْلَةِ التِّجارِيَّةِ ، راحَ التُّجّارُ يَجْمَعونَ الحَرَسَ ويُكَدِّسونَ بَضائِعَهُمْ في مَخْزونٍ كَبيرٍ واحِدٍ يَشْتَمِلُ ، في جُمْلَةِ ما يَشْتَمِلُ ، عَلى الحُلى الذَّهَبِيَّةِ والفَخّارِيّاتِ وسِوى ذلِكَ مِنْ أَعْمالِ الحِرَفِيّينَ .



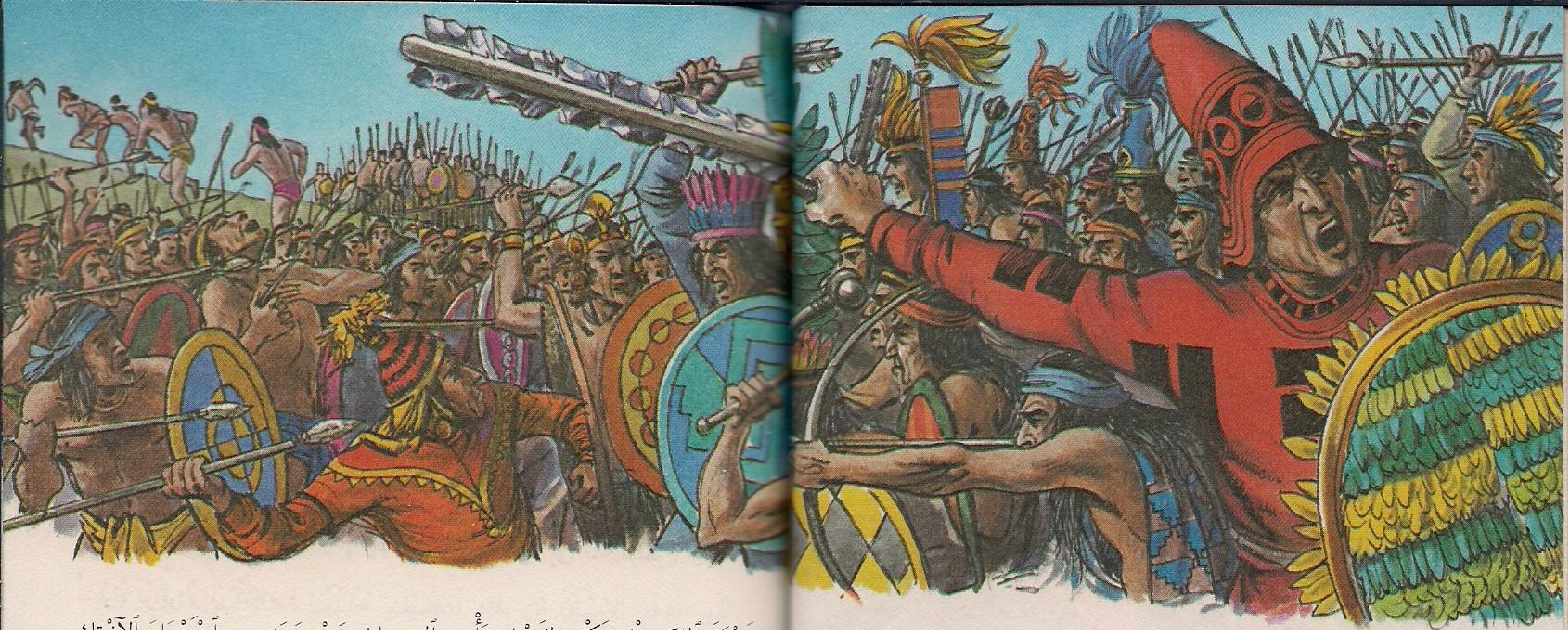
وكانَ بَيْنَ ٱلْبَضائِعِ كذٰلِكَ أعْشابٌ طِبِّيَّةٌ وعِطْرِيَّةٌ ، وإبَرٌ وفَرْوٌ وثِيابٌ وعَباءاتٌ وبَهاراتٌ وحِبالٌ وأَدْوِيَةٌ وريشٌ وكَمِّيّاتٌ مِنَ ٱلْمِلْحِ وٱلسَّبَجِ (بِلَّوْرٌ بُرْكانِيٌّ أَسْوَدُ) ومَوادُّ خامٌ أُخْرى . وكانَتْ هٰذِهِ ٱلْبَضائِعُ تُرْزَمُ رَزْمًا جَيِّدًا وتُعَدُّ لِيَحْمِلَها حَمّالو ٱلقافِلَةِ ٱلتِّجارِيَّةِ على ظُهورِهِمْ .

وكانَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذي يَسْبِقُ قِيامَ ٱلحَمْلَةِ ٱلتِّجارِيَّةِ يَوْمًا حَزينًا عِنْدَ ٱلتُّجّارِ وعِنْدَ عائِلاتِهِمْ عَلى ٱلسَّواءِ . فَٱلْمَخاطِرُ ٱلشَّديدَةُ ٱلَّتي تَتَعَرَّضُ لَها قَوافِلُ ٱلتِّجارَةِ لا تَخْفى عَلى أَحَدٍ . فَقَدْ كانَ عَلى ٱلتُّجّارِ أَنْ يَجْتازوا ٱلصَّحارى ومَمَرّاتٍ في ٱلْجِبالِ مَحْفوفَةً بِٱلْمَخاطِرِ وأَنْهارًا سَريعَةَ ٱلْجَرَيانِ . أَوْ كانوا يَتَعَرَّضونَ لِهَجَماتِ قَبائِلَ مُعادِيَةٍ ، أَوْ يَموتونَ مِنْ شُرْبِ ٱلماءِ ٱلْمُلَوَّثِ أَوِ ٱلطَّعامِ ٱلفاسِدِ أَوِ الإِرْهاقِ .

وطَبيعِيٌّ أَنْ تَكونَ ٱلنُّجومُ قَدِ ٱسْتُشيرَتْ وأَنْ يَكونَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذي أُشيرَ بِهِ هُوَ ٱلْيَوْمَ ٱلْمُناسِبَ . ومَعَ ذٰلِكَ فَٱلرَّحيلُ مَدْعاةٌ إلى ٱلأَسى . فَقَدْ تَمُرُّ سَنَواتٌ قَبْلَ أَنْ يَعودَ ٱلتُّجّارُ إلى زَوْجاتِهِمْ وأَوْلادِهِمْ . وكانَ ٱلتُّجّارُ وأَفْرادُ عائِلاتِهِمْ عَلى ٱلسَّواءِ ، إظْهارًا مِنْهُمْ أَنَّهُمْ سَيُفَكِّرونَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ في أَثْناءِ ٱلْغِيابِ ، يَغْسِلونَ رُؤوسَهُمْ ويَحْلِقونَ شُعورَهُمْ ولا يَفْعَلونَ ذٰلِكَ ثانِيَةً قَبْلَ أَنْ يَعودَ ٱلْغائِبونَ إلى بُيوتِهِمْ سالِمينَ .

يَنْسَحِبُ ٱلتُّجّارُ بَعْدَ ذٰلِكَ مِنْ بُيوتِهِمْ بِهُدوءٍ ، ويَنْطَلِقونَ في رِحْلَتِهِمْ تُصاحِبُهُمْ فِرْقَةٌ قَوِيَّةٌ مِنَ ٱلْجُنْدِ تَحْرُسُهُمْ مِنْ هَجَماتِ ٱلْمُهاجِمينَ ، وتُرْهِبُ ٱلْقَبائِلَ غَيْرَ ٱلرّاغِبَةِ في ٱلْمُبادَلَةِ ٱلتِّجارِيَّةِ . فَقَدْ كانَ تُجّارُ ٱلآزْتِك ٱلْمُسْتَبِدّينَ يَنْظُرونَ إلى مَنْ يَرْفُضُ ٱلْمُتاجَرَةَ مَعَهُمْ نَظْرَتَهُمْ إلى أَعْداءٍ . وكانوا لا يَتَوَرَّعونَ عَنْ شَنِّ ٱلْحَرْبِ عَلى ٱلْغُرَباءِ لإِجْبارِهِمْ عَلى ٱلْمُبادَلَةِ ٱلتِّجارِيَّةِ .

ٱلقافِلَةُ ٱلتِّجارِيَّةُ تَبْدَأُ ٱنْطِلاقَها



ولَمْ يكُنِ التُّجّارُ مَرْهوبي الجانِبِ مَكْروهينَ لِمُمارَسَتِهِمْ فَرْضَ المُبادَلَةِ التِّجارِيَّةِ بِالقُوَّةِ فَحَسْبُ، وإِنَّما لأَنَّهُمْ كانوا، كَذٰلِكَ، يَتَجَسَّسونَ على القَبائِلِ مِنْ غَيْرِ الآزْتِك ويَنْقُلونَ أَخْبارَها إلى حُكومَةِ تِنوتْشْتِتْلان. فَيَجْمَعونَ، في تَجْوالِهِم، المَعْلوماتِ عَنْ ثَراءِ المَناطِقِ وقُوَّةِ أَهْلِها العَسْكَرِيَّةِ، ويَرْفَعونَ تَقْريرَهُمْ إلى المَلِكِ. فإذا كانَتْ تِلْكَ المَناطِقُ مِنَ الغِنى بِحَيْثُ تُبَرِّرُ العَناءَ، أَرْسَلَ المَلِكُ جَيْشًا يَغْزوها.

وكانَ جُنْدُ الآزْتِك، كما عَرَفَتِ القَبائِلُ المَغْلوبَةُ على أَمْرِها، خارِقينَ، يَسْتَعْمِلونَ أَسْلِحَةً فَتّاكَةً. ومِنْ أَسْلِحَتِهِمِ الماكويتل، وهُوَ سِلاحٌ شَبيهٌ بِسَيْفٍ وهِراوَةٍ مَعًا، مُؤَلَّفٌ مِنْ وَتَدٍ خَشَبِيٍّ صُلْبٍ طولُهُ حَوالى المِتْرِ رُكِّبَتْ عَلَيْهِ نِصالٌ حادَّةٌ مِنَ السَّبَج. وما كانَ أَشَدَّ ذُهولَ الإِسْبانِ، فيما بَعْدُ، حينَ اكْتَشَفوا أَنَّ



ضَرْبَةَ الماكويتل تَكْفي لِفَصْلِ رَأْسِ الحِصانِ عَنْ جَسَدِهِ. واسْتَعْمَلَ الآزْتِك أَيْضًا قاذِفَةً تَرْمي رِماحًا مُزَوَّدَةً بِرُؤُوسٍ مِنَ السَّبَج. وزُوِّدَتْ سِهامُهُمْ، هِيَ الأُخْرى، وطولُ الواحِدِ مِنْها، عادَةً، مِتْرٌ ونِصْفُ المِتْرِ، بِرُؤُوسٍ مِنَ السَّبَج.

وزُوِّدَ جُنْدُ الآزْتِك، حِمايَةً لَهُمْ، بِبَذْلَةٍ سَميكَةٍ مُبَطَّنَةٍ مَصْنوعَةٍ مِنَ القُطْنِ المَنْقوعِ بِالماءِ المالِحِ، تَمْتَدُّ مِنَ العُنُقِ إلى الرُّكْبَتَيْنِ. وأَمّا الدُّروعُ فَكانَتْ عادَةً مُسْتَديرَةً، قُطْرُ الواحِدَةِ مِنْها سَبْعَةٌ وسَبْعونَ سَنْتيمِتْرًا.

ولَعَلَّ أَحَدَ أَشَدِّ أَسْلِحَةِ الآزْتِك فَعالِيَةً مَظْهَرُهُمْ والجَلَبَةُ الَّتي كانوا يُحْدِثونَها قَبْلَ بَدْءِ المَعْرَكَةِ. فَقَدْ دَأَبوا على إِفْزاعِ أَعْدائِهِمْ بِقَرْعِ الطُّبولِ أَوْ بِالنَّفْخِ في صَدَفِ المَحارِ لإِصْدارِ نَغَماتٍ عَميقَةٍ مُرْعِبَةٍ، أَوْ بِاسْتِخْدامِ صَفّاراتٍ تُطْلِقُ صَفيرًا حادًّا ثاقِبًا مُرَوِّعًا.

وكانَ جَيْشُ ٱلآزْتِك ، في مِثْلِ هٰذا ٱلجوِّ ٱلمُرْعِبِ ، يَنْدَفِعُ بقيادةِ فُرْسانٍ تُغَطّي رُؤوسَهُمْ أَغْطِيَةٌ ذاتُ ريشٍ ، وتَلُفُّ أَجْسادَهُمْ جُلودُ ٱليَغْوَرِ (ٱلنَّمِرِ ٱلمُرَقَّطِ) أَوْ جُلودُ غَيْرِهِ مِنَ ٱلحَيَواناتِ ٱلمُفْتَرِسَةِ . وفَوْقَ حُشودِ ٱلآزْتِك كانَتْ تَرْتَفِعُ راياتٌ ذاتُ ريشٍ تُطِلُّ مِنْها على جُمْهورِ ٱلأَعْداءِ وُجوهُ نُسورٍ وفُهودٍ مَرْسومَةٌ رَسْمًا يوحي بِٱلشَّراسَةِ . ولَطالَما هَرَبَ ٱلأَعْداءُ فَزَعًا مِنْ مَظْهَرِ جَيْشِ ٱلآزْتِك ٱلمُرْعِبِ . أَمّا أُولٰئِكَ ٱلّذينَ كانوا يُؤْثِرونَ ٱلقِتالَ فَقَدْ كانَ جَيْشُ ٱلآزْتِك ، أَقْوى جَيْشٍ في بِلادِ ٱلمَكْسيكِ كُلِّها ، يُنْزِلُ بِهِمْ هَزيمَةً ساحِقَةً .

ولَقَدْ ظَلَّتِ ٱلحالُ كَذٰلِكَ حَتّى العامِ ١٥١٩ عِنْدَما أَبْحَرَ كورتيز مِنْ كوبا ، وكانَتْ آنَذاكَ مُسْتَعْمَرَةً إِسْبانِيَّةً ، بِأُسْطولٍ يَتَأَلَّفُ مِنْ ١١ سَفينَةً ، و ٥٠٨ جُنودٍ ، ومِئَةِ بَحّارٍ ، و ١٦ خَيّالًا ، و ١٤ مِدْفَعًا ، مُتَّجِهًا إلى ٱلمَكْسيكِ . والإِسْبانُ أَشِدّاءُ تَوّاقونَ إلى ٱلمُغامَرَةِ .

ٱلشّاطِئُ ٱلّذي نَزَلَ عِنْدَهُ الإِسْبانُ

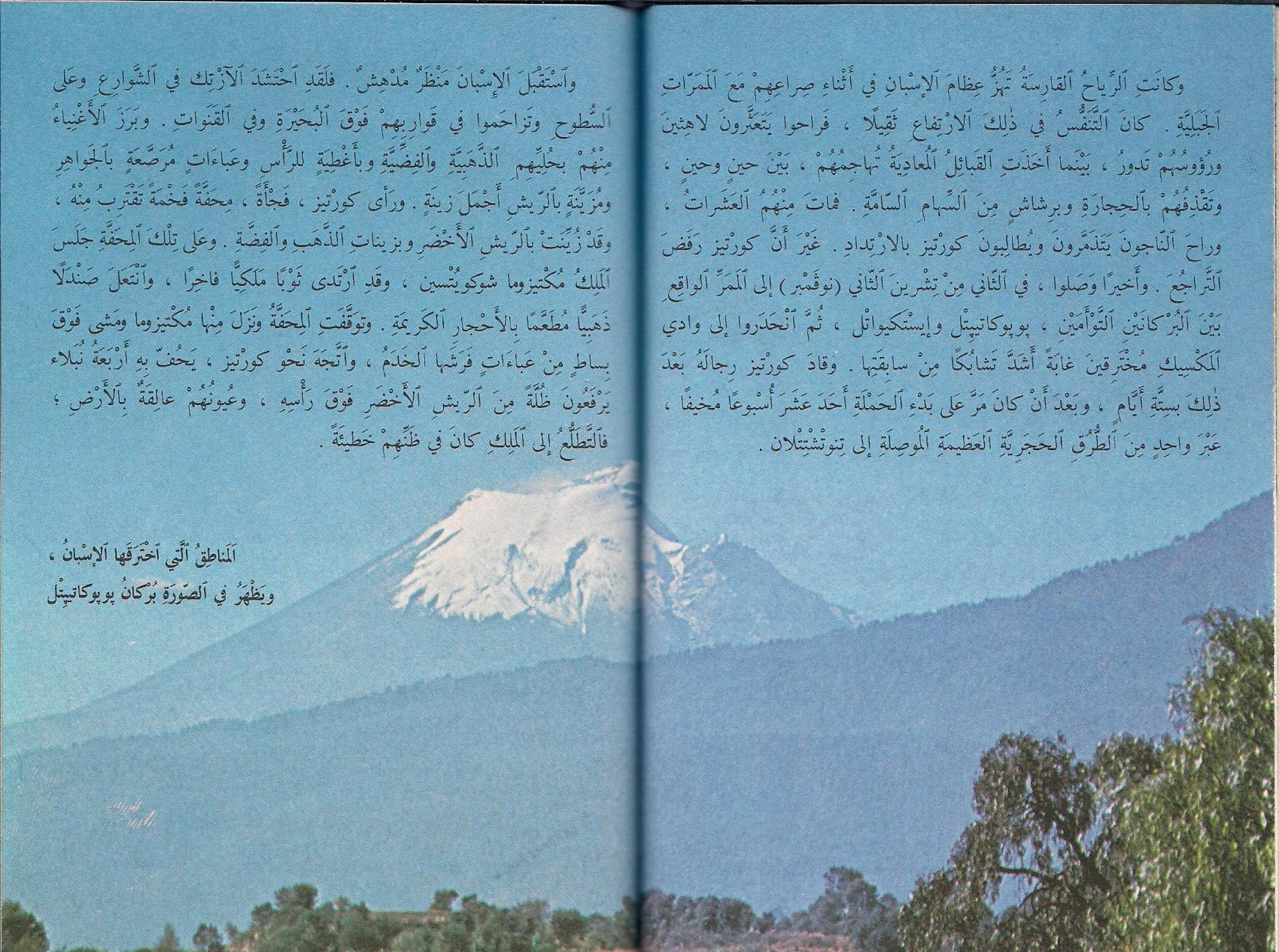






لقدِ ٱنْدَفَعَ ٱلإِسْبانُ إلى بِلادِ ٱلمَكْسيكِ تَجْذِبُهُمْ أَخْبارٌ مُغْرِيَةٌ عَنْ كُنوزِ ٱلذَّهَبِ وٱلفِضَّةِ وٱلأَحْجارِ ٱلكَريمَةِ . كَذٰلِكَ رَغِبوا في أَنْ يَضُمّوا ٱلمَكْسيكَ إلى مَجْموعَةِ ٱلمُسْتَعْمَراتِ ٱلّتي كانوا قَدِ ٱسْتَوْلَوْا عَلَيْها في ٱلعالَمِ ٱلجَديدِ ، وهِيَ جُزُرُ ٱلبَحْرِ ٱلكاريبي وٱلبَرازيلُ وپاناما . وكانَتْ إِمْبَراطورِيَّةُ ٱلآزْتِك في بِلادِ ٱلمَكْسيكِ ٱلجائِزَةَ ٱلكُبْرى ٱلّتي يُمْكِنُ أَنْ يَغْنَمَها ٱلمُسْتَعْمِرُ . لِذا عَقَدَ كورْتيز ٱلعَزْمَ على أَنْ يُصْبِحَ سَيِّدَ هٰذِهِ ٱلإِمْبَراطورِيَّةِ .

كانَ على كورْتيز ، قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ ، أَنْ يَصِلَ إلى قَلْبِ ٱلإِمْبَراطورِيَّةِ ، أَيِ ٱلعاصِمَةِ تِنوتْشْتِتْلان . ويَتَطَلَّبُ ذٰلِكَ ، بِطَبيعَةِ ٱلحالِ ، رِحْلَةً شاقَّةً خَطِرَةً عَبْرَ جِبالٍ تَرْتَفِعُ في أَماكِنَ إلى عُلُوِّ ٥٤٨٦ مِتْرًا . وبَدَأَ كورْتيز ، في أَواسِطِ آب (أُغُسْطُس) مِنْ عامِ ١٥١٩ ، هُوَ و ٤٠٠ جُنْدِيٍّ إِسْبانِيٍّ ، حَمْلَتَهُ عَبْرَ ٱلسَّهْلِ ٱلسّاحِلِيِّ ٱلحارِّ . وسُرْعانَ ما بَدَأَ ٱلإِسْبانُ يَتَسَلَّقونَ جِبالًا تُغَطّيها غاباتٌ مُتَشابِكَةٌ ، وَصَلوا بَعْدَها إلى سَهْلٍ جَبَلِيٍّ مُرْتَفِعٍ .



وكانَتِ ٱلرِّياحُ ٱلقارِسَةُ تَهُزُّ عِظامَ ٱلإسْبانِ في أَثْناءِ صِراعِهِمْ مَعَ ٱلمَمَرّاتِ ٱلجَبَلِيَّةِ. كانَ ٱلتَّنَفُّسُ في ذٰلِكَ ٱلارْتِفاعِ ثَقيلًا، فَراحوا يَتَعَثَّرونَ لاهِثينَ ورُؤوسُهُمْ تَدورُ، بَيْنَما أَخَذَتِ ٱلقَبائِلُ ٱلمُعادِيَةُ تُهاجِمُهُمْ، بَيْنَ حينٍ وحينٍ، وتَقْذِفُهُمْ بِٱلحِجارَةِ وبِرَشاشٍ مِنَ ٱلسِّهامِ ٱلسّامَّةِ. فَماتَ مِنْهُمُ ٱلعَشَراتُ، وراحَ ٱلنّاجونَ يَتَذَمَّرونَ ويُطالِبونَ كورْتيز بِالارْتِدادِ. غَيْرَ أَنَّ كورْتيز رَفَضَ ٱلتَّراجُعَ. وأَخيرًا وَصَلوا، في ٱلثّاني مِنْ تِشْرينَ ٱلثّاني (نوفَمْبِر) إلى ٱلمَمَرِّ ٱلواقِعِ بَيْنَ ٱلبُرْكانَيْنِ ٱلتَّوْأَمَيْنِ، بوبوكاتيبِتْل وإيسْتَكيواتْل، ثُمَّ ٱنْحَدَروا إلى وادي ٱلمَكْسيكِ مُخْتَرِقينَ غابَةً أَشَدَّ تَشابُكًا مِنْ سابِقَتِها. وقادَ كورْتيز رِجالَهُ بَعْدَ ذٰلِكَ بِسِتَّةِ أَيّامٍ، وبَعْدَ أَنْ كانَ مَرَّ عَلى بَدْءِ ٱلحَمْلَةِ أَحَدَ عَشَرَ أُسْبوعًا مُخيفًا، عَبْرَ واحِدٍ مِنَ ٱلطُّرُقِ ٱلحَجَرِيَّةِ ٱلعَظيمَةِ ٱلمُوصِلَةِ إلى تِنوتْشْتِلان.



وٱسْتَقْبَلَ ٱلإسْبانَ مَنْظَرٌ مُدْهِشٌ. فَلَقَدِ ٱحْتَشَدَ ٱلآزْتِك في ٱلشَّوارِعِ وعَلى ٱلسُّطوحِ وتَزاحَموا في قَوارِبِهِمْ فَوْقَ ٱلبُحَيْرَةِ وفي ٱلقَنَواتِ. وبَرَزَ ٱلأَغْنِياءُ مِنْهُمْ بِحُلِيِّهِمِ ٱلذَّهَبِيَّةِ وٱلفِضِّيَّةِ وبِأَغْطِيَةٍ لِلرَّأْسِ وعَباءاتٍ مُرَصَّعَةٍ بِٱلجَواهِرِ ومُزَيَّنَةٍ بِٱلرّيشِ أَجْمَلَ زينَةٍ. ورَأى كورْتيز، فَجْأَةً، مِحَفَّةً فَخْمَةً تَقْتَرِبُ مِنْهُ، وقَدْ زُيِّنَتْ بِٱلرّيشِ ٱلأَخْضَرِ وبِزينَاتِ ٱلذَّهَبِ وٱلفِضَّةِ. وعَلى تِلْكَ ٱلمِحَفَّةِ جَلَسَ ٱلمَلِكُ مُكْتيزوما شوكويُتْسين، وقَدِ ٱرْتَدى ثَوْبًا مَلَكِيًّا فاخِرًا، وٱنْتَعَلَ صَنْدَلًا ذَهَبِيًّا مُطَعَّمًا بِالأَحْجارِ ٱلكَريمَةِ. وتَوَقَّفَتِ ٱلمِحَفَّةُ ونَزَلَ مِنْها مُكْتيزوما ومَشى فَوْقَ بِساطٍ مِنْ عَباءاتٍ فَرَشَها ٱلخَدَمُ، وٱتَّجَهَ نَحْوَ كورْتيز، يَحُفُّ بِهِ أَرْبَعَةُ نُبَلاءَ يَرْفَعونَ ظُلَّةً مِنَ ٱلرّيشِ ٱلأَخْضَرِ فَوْقَ رَأْسِهِ، وعُيونُهُمْ عالِقَةٌ بِٱلأَرْضِ؛ فَالتَّطَلُّعُ إلى ٱلمَلِكِ كانَ في ظَنِّهِمْ خَطيئَةً.

ٱلمَناطِقُ ٱلَّتي ٱخْتَرَقَها ٱلإسْبانُ،
ويَظْهَرُ في ٱلصّورَةِ بُرْكانُ بوبوكاتيبِتْل



غِطاءُ رَأْسٍ رِيشِيٌّ يُظَنُّ أَنَّهُ كانَ لِلْمَلِكِ مُكْتيزوما

تَهادى ٱلْمَلِكُ وكورْتيز ٱلْقَلائِدَ ، ثُمَّ دَخَلَ ٱلإِسْبانُ ٱلعاصِمَةَ تِنوتْشْتِلان . وفي ٱلعاصِمَةِ رَأَوْا مَناظِرَ أَشَدَّ إِذْهالًا . فَفَوْقَ ٱلْماءِ أَحْواضٌ عائِمَةٌ مِنَ ٱلأَزْهارِ ٱلزَّكِيَّةِ ٱلرّائِحَةِ ، ضَخْمَةٌ ومُلَوَّنَةٌ . ومِنْ حَوْلِهِمْ وَقَفَ ٱلنُّبَلاءُ يُحَيّونَهُمْ بِأَكاليلِ ٱلزَّهْرِ ، وأَطْواقِ ٱلذَّهَبِ ، وبِعُقودٍ ومَوادَّ بَديعَةِ ٱلحِياكَةِ .

ثُمَّ كانَتِ ٱلْمُفاجَأَةُ ٱلصّاعِقَةُ ؛ فَقَدِ ٱنْحَنى مُكْتيزوما أَمامَ كورْتيز ، وقالَ لَهُ : «سَيِّدي ، أَتَيْتَ تَمْلِكُ عَرْشَكَ .. وها هُوَ ٱلشَّعْبُ جاثٍ بَيْنَ يَدَيْكَ ، وفي حِمايَتِكَ .. أَهْلاً بِكَ ، يا سَيِّدي ، في مَمْلَكَتِكَ ! »



وكادَ ٱلإِسْبانُ أَلَّا يُصَدِّقوا آذانَهُمْ . فَلَقَدْ بَدا أَنَّ مُكْتيزوما يَحْسَبُهُم آلِهَةً وأَنَّهُ يَهَبُهُمْ مَمْلَكَتَهُ بِمِلْءِ إِرادَتِهِ .

بَلْ إِنَّ ٱلآزْتِك نَظَروا إِلى ٱلجِيادِ نَفْسِها نَظْرَتَهُمْ إِلى مَخْلوقاتٍ سَماوِيَّةٍ ، فَأَعَدّوا لَها فِراشًا مِنَ ٱلأَزْهارِ تَنامُ عَلَيْهِ .

أَدْرَكَ كورْتيز عَلى ٱلفَوْرِ ٱلخَطَأَ ٱلَّذي وَقَعَ فيهِ ٱلآزْتِك . فَقَدْ كانَ سَمِعَ بِتِلْكَ ٱلنُّبوءَةِ ٱلَّتي يُؤْمِنونَ بِها وٱلَّتي تَزْعُمُ أَنَّ إِلٰهَهُمُ ٱلأَبْيَضَ ٱلبَشَرَةِ كيتْزَلْكُواتْل سَيَعودُ إِلى ٱلأَرْضِ مِنْ جِهَةِ ٱلشَّرْقِ مُطالِبًا بِإِمْبَراطورِيَّةِ ٱلآزْتِك . وٱلإِسْبانُ بيضُ ٱلبَشَرَةِ وجاؤوا مِنْ جِهَةِ ٱلشَّرْقِ ، مِنْ أوروبَّةَ ، عَبْرَ ٱلمُحيطِ ٱلأَطْلَسِيِّ .

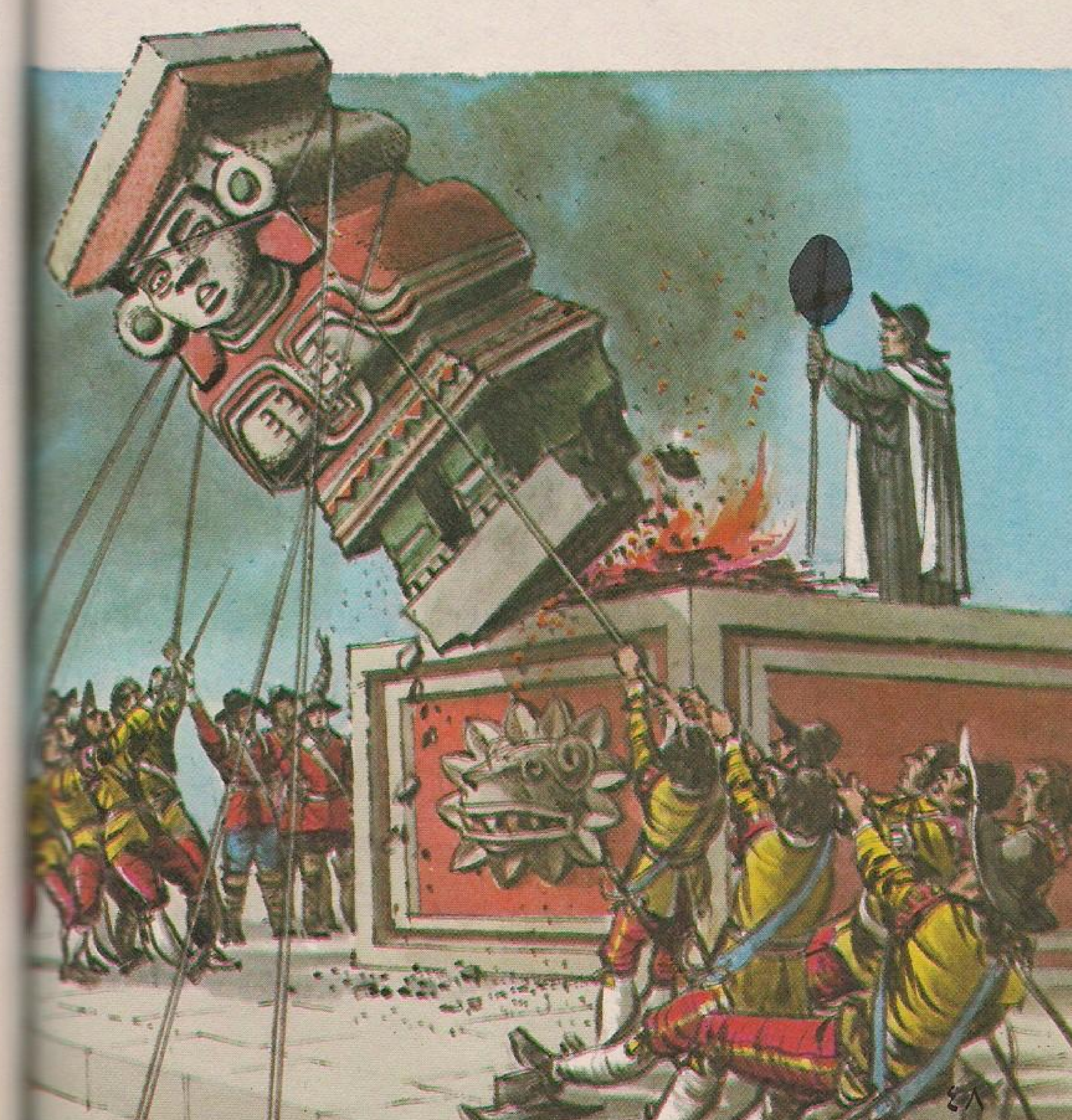
وكانَ عَلى كورْتيز ، رَغْمَ ذٰلِكَ ، أَنْ يَكونَ حَذِرًا . فَلَيْسَ مَعَهُ إِلّا قِلَّةٌ مِنَ ٱلرِّجالِ ، يُحيطُ بِهِمْ آلافٌ مِنْ جُنْدِ ٱلآزْتِك في تِلْكَ ٱلْمِنْطَقَةِ ٱلجَبَلِيَّةِ ٱلعالِيَةِ ٱلغَريبَةِ . ولَوْ أَنَّ ٱلآزْتِك أَدْرَكوا ، فَجْأَةً ، غَلْطَتَهُمْ لَٱنْقَلَبوا عَلى ٱلإِسْبانِ وأَبادوهُمْ .

وحَمى كورْتيز نَفْسَهُ مِنْ مِثْلِ هٰذِهِ ٱلْمُجازَفَةِ بِأَنِ ٱحْتَجَزَ ، بُعَيْدَ دُخولِهِ تِنوتْشْتِلان ، ٱلْمَلِكَ مُكْتيزوما . وبِذٰلِكَ صارَ في إِمْكانِهِ أَنْ يُصْدِرَ إِلى ٱلآزْتِك أَوامِرَهُ مِنْ خِلالِ ٱلْمَلِكِ ٱلأَسيرِ ، فَيُطيعوا جَرْيًا عَلى عادَتِهِمْ في طاعَةِ ٱلْمَلِكِ طاعَةً عَمْياءَ . وهٰكَذا كانَ .

وطَلَبَ كورْتيز أَنْ يُقْسِمَ ٱلآزْتِك يَمينَ ٱلوَلاءِ لِمَلِكِ إِسْبانيا شارْل . فَأَمَرَ مُكْتيزوما نُبَلاءَهُ بِأَنْ يُقْسِموا ٱليَمينَ ، فَفَعَلوا . وبَدا أَنَّ ٱلأُمورَ كُلَّها تَسيرُ سَيْرًا هَيِّنًا . وهَنَّأَ كورْتيز نَفْسَهُ عَلى حَظِّهِ ٱلعَجيبِ . فَإِنَّهُ لَمْ يَحْلُمْ يَوْمًا بِأَنْ يَكونَ غَزْوُ بِلادِ ٱلْمَكْسيكِ بِمِثْلِ هٰذِهِ ٱلسُّهولَةِ .

ثُمَّ أَخَذَتِ ٱلأُمورُ بِٱلتَّغَيُّرِ . فَقَدْ بَلَغَتْ كورْتيز ، في أَيّار (مايو) مِنْ عام ١٥٢٠ ، أَنْباءٌ مُقْلِقَةٌ . إِذْ وَصَلَتْ إِلى خَليجِ ٱلمَكْسيكِ قُوَّةٌ إِسْبانِيَّةٌ مُؤَلَّفَةٌ مِنْ ١٤٠٠ رَجُلٍ بِقِيادَةِ بانْفِلو نارْڤاييز ، خَصْمِ كورْتيز ٱلقَديمِ . وَحَمَلَ نارْڤاييز مَعَهُ أَوامِرَ مِنْ حاكِمِ كوبا ٱلإِسْبانِيِّ ، وَهُوَ أَيْضًا مِنْ مُبْغِضي كورْتيز ، بِإِلْقاءِ ٱلقَبْضِ عَلَيْهِ ، وَعَزْلِهِ عَنْ حُكْمِ ٱلمَكْسيكِ . فَٱضْطُرَّ كورْتيز إِلى مُغادَرَةِ تِنوتْشْتِتْلان

ٱلإِسبان يُحَطِّمونَ صَنَمًا آزْتِكِيًّا





لِمُواجَهَةِ ذٰلِكَ ٱلخَطَرِ ٱلطّارِئِ . وَتَغَلَّبَ عَلى نارْڤاييز دونَ مَشَقَّةٍ ، وَعادَ إِلى تِنوتْشْتِتْلان فَوَصَلَها في ٱلرّابِعِ وَٱلعِشْرينَ مِنْ حَزيرانَ (يونيه) . غَيْرَ أَنَّ غِيابَهُ تَسَبَّبَ بِحُدوثِ كارِثَةٍ . فَإِنَّ ٱلإِسْبانَ ، بِغِيابِ قائِدِهِمْ ، تَخَلَّوا عَنِ ٱنْضِباطِهِمْ فَحَطَّموا ٱلأَصْنامَ ، وَسَرَقوا ٱلهَياكِلَ ، وَأَكْرَهوا ٱلآزْتِك عَلى ٱعْتِناقِ ٱلنَّصْرانِيَّةِ .

جُنَّ جُنونُ ٱلآزْتِك ، وَشَنّوا ، بُعَيْدَ رُجوعِ كورْتيز ، هُجومًا عَلى ٱلإِسْبانِ فَقَتَلوا ثُلْثَهُمْ وَدَحَروا ٱلثُّلُثَيْنِ ٱلباقِيَيْنِ إِلى خارِجِ تِنوتْشْتِتْلان . وَلَمّا حاوَلَ مُكْتيزوما إِيقافَ ٱلقِتالِ رَجَموهُ بِٱلحِجارَةِ وَماتَ مُتَأَثِّرًا بِجِراحِهِ .

غَضِبَ كورْتيز غَضَبًا شَديدًا ، فَقَدْ كادَتْ إِمْبَراطورِيَّةُ ٱلآزْتِك أَنْ تَقَعَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، أَمّا ٱلآنَ فَعَلَيْهِ أَنْ يُحارِبَ لِلسَّيْطَرَةِ عَلَيْها . وَأَعَدَّ خُطَّةَ ٱلهُجومِ بِعِنايَةٍ فائِقَةٍ .

أَمَرَ أَوَّلاً بِبِناءِ سُفُنٍ لِيَتَمَكَّنَ مِنْ قَصْفِ تِنوتْشْتِتْلان بِٱلمَدافِعِ مِنَ ٱلبُحَيْرَةِ . ثُمَّ ٱسْتَغَلَّ ٱلحِقْدَ ٱلَّذي يُكِنُّهُ أَتْباعُ ٱلإِمْبَراطورِيَّةِ ٱلمَغْلوبينَ عَلى أَمْرِهِمْ ، فَطَلَبَ مِنْهُمُ ٱلانْضِمامَ إِلَيْهِ . وَقَدْ فَعَلَ ٱلآلافُ مِنْهُمْ ذٰلِكَ راضينَ ، إِذْ أُتيحَتْ لَهُمْ أَخيرًا ، بِمُساعَدَةِ ٱلإِسْبانِ ، فُرْصَةُ ٱلانْتِقامِ .

وَكانَ كُلُّ شَيْءٍ ، في نِهايَةِ ٱلعامِ ١٥٢٠ قَدْ أُعِدَّ . وَفي ٱلسّابِعِ وَٱلعِشْرينَ مِنْ كانونَ ٱلأَوَّلِ (ديسَمْبَر) شَرَعَ كورْتيز مَرَّةً أُخْرى في ٱلتَّوَجُّهِ إِلى تِنوتْشْتِتْلان عَلى رَأْسِ جَيْشٍ مُؤَلَّفٍ مِنْ ٥٤٠ جُنْدِيًّا مِنَ ٱلمُشاةِ ، و ٤٠ خَيّالاً و ١٠٠,٠٠٠ مِنْ رِجالِ ٱلقَبائِلِ ٱلمَحْكومَةِ . وَلَقَدْ دَمَّرَ ٱلحِصارُ ٱلدَّمَوِيُّ ٱلطَّويلُ ، ٱلَّذي تَلا ذٰلِكَ ٱلزَّحْفَ ، ٱلجُزْءَ ٱلأَكْبَرَ مِنْ مَدينَةِ تِنوتْشْتِتْلان ٱلجَميلَةِ ، وَأَدّى إِلى قَتْلِ حَوالى ٢٤٠,٠٠٠ مِنْ سُكّانِها . وَمَنَعَ رِجالُ كورْتيز عَنِ ٱلمَدينَةِ ، في أَثْناءِ ذٰلِكَ ، ٱلماءَ وَٱلغِذاءَ .

ظَلَّتْ مِدْفَعِيَّةُ ٱلإِسْبانِ أَيّامًا مُتَواصِلَةً تَقْصِفُ ٱلعاصِمَةَ ٱلآزْتِكِيَّةَ بِرَجَماتِ ٱلقَذائِفِ . وفيما أَخَذَ ٱلإِسْبانُ وحُلَفاؤُهُم يَشُقّونَ طَريقَهُمْ عَبْرَ تِنوتْشْتِلان راحَ ٱلآزْتِك يُقاوِمونَ مُقاوَمَةً ضارِيَةً . أَخَذوا يَرْمونَ ٱلمُهاجِمينَ بِأَعْدادٍ هائِلَةٍ مِنَ ٱلسِّهامِ وٱلحِجارَةِ وسِوى ذٰلِكَ مِنَ ٱلمَقْذوفاتِ ، ويُقَدِّمونَ مَنْ يَقَعُ بِأَيْديهِمْ مِنَ ٱلإِسْبانِ ، قَرابينَ عَلى مَذْبَحِ ويتْزيلوبُتْشْتْلي ، ويُصَلّونَ ، لَيْلاً ونَهارًا ، طالِبينَ مِنْ إِلٰهِهِمْ أَنْ يُنْجِدَهُمْ . ولٰكِنْ عَبَثًا كانوا يَطْلُبونَ . فَلَقَدْ واصَلَ جَيْشُ كورْتيز شَقَّ طَريقِهِ داخِلَ ٱلمَدينَةِ قاتِلًا كُلَّ مَنْ يُواجِهُهُ ومُدَمِّرًا كُلَّ شَيْءٍ . وسُرْعانَ ما سُدَّتْ قَنواتُ ٱلمَدينَةِ بِحُطامِ ٱلبُيوتِ ٱلمُهَدَّمَةِ وٱلهَياكِلِ وأَكْوامِ جُثَثِ ٱلقَتْلى .

وٱنْتَهى ، أَخيرًا ، في ٱلثّالِثَ عَشَرَ مِنْ آبَ (أُغُسْطُس) مِنْ عام ١٥٢١ ، كُلُّ شَيْءٍ . في ذٰلِكَ ٱليَوْمِ سَقَطَتْ تِنوتْشْتِلان ، أَوْ قُلِ ٱلحُطامُ ٱلمَمْزوجُ بِٱلدَّمِ ودُخانِ ٱلحَرائِقِ ، في يَدِ ٱلإِسْبانِ . وهٰكَذا ٱنْتَهَتْ إِمْبَراطورِيَّةُ ٱلآزْتِك وٱنْتَهى مَعَها عالَمُهُمُ ٱلَّذي عَرَفوهُ . فَقَدْ حاوَلَ ٱلإِسْبانُ ، ٱلَّذينَ حَكَموا ٱلمَكْسيكَ حَتّى ١٨٢١ ، تَدْميرَ كُلِّ أَثَرٍ مِنْ آثارِ ٱلحَضارَةِ ٱلآزْتِكِيَّةِ . هَدَموا ٱلهَياكِلَ وحَطَّموا ٱلأَصْنامَ وأَقاموا عَلى أَنْقاضِها مَعابِدَ لَهُمْ . وبَنَوا فَوْقَ حُطامِ تِنوتْشْتِلان مَدينَةً جَديدَةً أَسْمَوْها مَدينَةَ ٱلمَكْسيكِ . أَحْرَقوا كُتُبَ كَهَنَةِ ٱلآزْتِك ٱلمُقَدَّسَةَ ، وأَكْرَهوا ٱلشَّعْبَ عَلى ٱعْتِناقِ ٱلنَّصْرانِيَّةِ . وتَمَزَّقَتْ رَوابِطُ ٱلعَشائِرِ ٱلآزْتِكِيَّةِ ٱلمَوْروثَةُ ، وصارَ أَفْرادُ ٱلعَشائِرِ رَقيقًا وعَبيدَ أَرْضٍ عِنْدَ سادَتِهِمِ ٱلإِسْبانِ .

ولَقَدْ تَصَرَّفَ ٱلإِسْبانُ هٰذا ٱلتَّصَرُّفَ لِأَنَّهُمْ نَظَروا إِلى ٱلآزْتِك نَظْرَتَهُمْ إِلى شَعْبٍ شِرّيرٍ مُتَعَطِّشٍ لِلدِّماءِ . وإِنَّهُ لَمِنَ ٱلمُؤْسِفِ أَنْ يَكونَ ٱلإِسْبانُ في أَثْناءِ تَدْميرِهِمُ ٱلشَّرَّ قَدْ دَمَّروا جانِبًا كَبيرًا مِنْ بَهاءِ حَضارَةِ ٱلآزْتِك وإِنْجازاتِها .





مَعْبَدٌ في مَدينَةِ ٱلمَكْسيكِ كَما هِيَ ٱليَوْمَ

لَمْ يَبْقَ ٱليَوْمَ كَثيرٌ مِمّا يُذَكِّرُ بِتِلْكَ ٱلقَبيلَةِ ٱلفَقيرَةِ ٱلجَوّالَةِ ٱلَّتي أَنْشَأَتْ إِحْدى أُولَياتِ ٱلإِمْبَراطورِيّاتِ ٱلعَظيمَةِ في ٱلقارَّةِ ٱلأَميرِكِيَّةِ . إِلّا أَنَّهُ ، مَعَ ذٰلِكَ ، لا يَزالُ عَدَدٌ مِنْ تَماثيلِ آلِهَةِ ٱلآزْتِك باقِيًا ، يُذَكِّرُ مِنْ خِلالِ تَعابيرِ ٱلوَجْهِ ٱلقاسِيَةِ ٱلشَّرِسَةِ بِصَلابَةِ ٱلعَقيدَةِ ٱلآزْتِكِيَّةِ وقُوَّتِها . ويُظْهِرُ ٱلتَّقْويمُ ٱلحَجَرِيُّ ٱلمَنْقوشُ ، أَوْ ما كانَ يُسَمّى عِنْدَهُمْ بِـ «حَجَرِ ٱلشَّمْسِ» ، وهُوَ ٱلَّذي ٱكْتُشِفَ في مَوْقِعِ تِنوتْشْتِلان ، عَبْقَرِيَّةَ ٱلآزْتِك في ٱلفَلَكِ . وأَمّا غِطاءُ ٱلرَّأْسِ ٱلرّيشِيُّ ٱلأَخْضَرُ ، ٱلَّذي يَبْلُغُ ٱرْتِفاعُهُ ١٢٢ سَنْتِمِتْرًا (وتَرى صورَتَهُ في ٱلصَّفْحَةِ ٤٦) ، فَإِنَّهُ يُري بَعْضًا مِمّا شاهَدَهُ ٱلإِسْبانُ مِنْ عَظَمَةٍ ورُواءٍ حينَ دَخَلوا ٱلعاصِمَةَ آلِهَةً ومَكَثوا فيها فاتِحينَ .




# المكسيك في العام ١٥١٩

تُري هٰذه الخريطة بلادَ المكسيك زمنَ الغزو الإسباني ، والطّريقَ التي اتّبعها كورتيز في حملته .

أمّا الرّسم الجانبيّ فيُري العاصمة - الجزيرة تنوتشتِتلان بشبكة قنواتها وشوارعها .